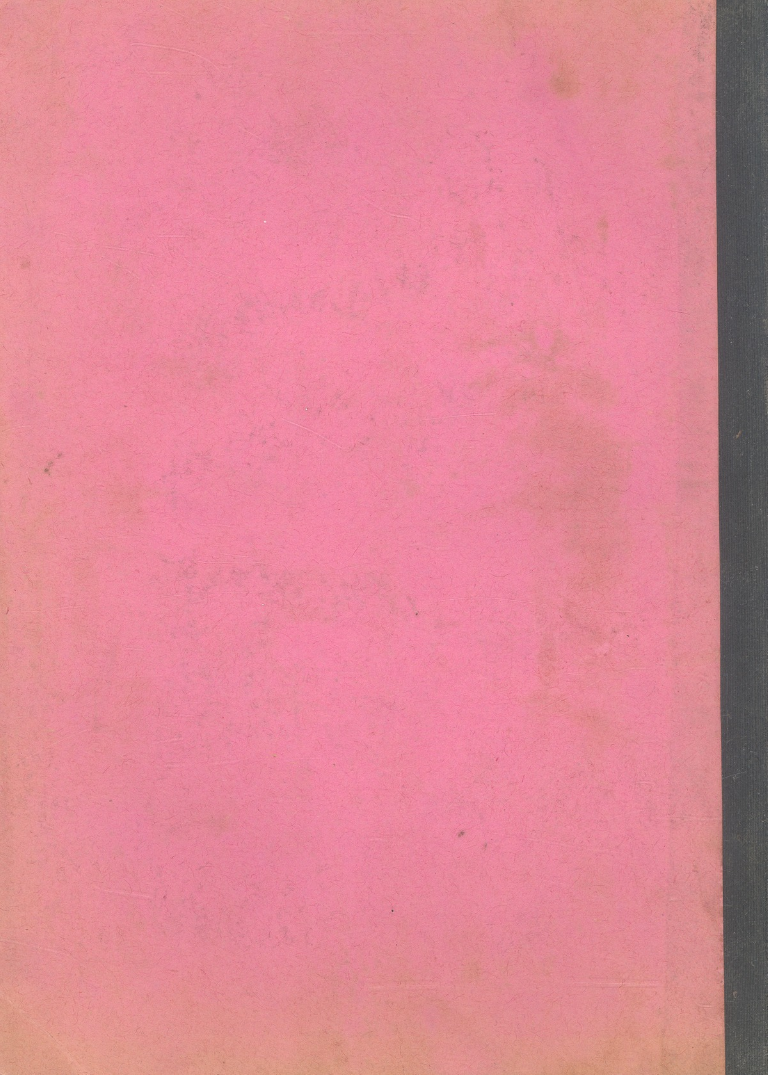


# تنبيه العقول الانسانية

## لما في آيات القرآن

### من العلوم الكونية والعمرانية




صاحب الفضيلة الاستاذ

« الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتى الديار المصرية سابقا »

ألقى بعض هذه الرسالة بصفة محاضرة فى الجامعة المصرية

يوم السبت ٧ ابريل سنة ١٩٢٣ — ٢٠ شعبان ١٣٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى صدع بأمر ربه وبلغ رسالته لامة أمية كانوا من قبل فى واد من الجهالة يهيمون فأخرجهم بهديه من ظلمات الجهل الى نور العلم واليقين وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم واتقوا الله وعلمهم الله مالم يكونوا يعلمون فاغترفوا من موارد نوره العذبة كل ما أرواهم من ظمأ الجهالة فهم من بعده لا يظمأون وحملوه لمن بعدهم شرابا صافيا فكان كل من بعدهم من العوالم عليهم عالة فى المنطوق والمفهوم فلم يبق علم من العلوم الالهية الشرعية الا عنه أخذوه ولا من العلوم العقلية كونية كانت أو عمرانية الا وعوه ودرسوه فعقلوا بالعقل المستفاد عقائدهم الاسلامية بكل ماتتوقف عليه من العلوم الطبيعية والسياسية والارضية والسماوية والجوية والله على ذلك شهيد وعلى آله واصحابه وسائر اتباعه واحبابه

(وبعد) فانى قد اطلعت على محاضرة القاها بالجامعة المصرية

حضرة الاستاذ السيد مصطفى عبد الرازق أحد افاضل علماء الازهر الشافعية ونشرت بعدد ١٢٣ من جريدة السياسة فى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ افرنكية فوجدته نقل فيها عن رجل اوربى يدعي « رينان » أقوالا طعن بها على الاسلام والمسلمين فدلت على مقدار مبلغه من العلم وانه لم ينل منه الا مجرد سفسطة ومغالطة وقد ظلمه من سماه فيلسوفا وهو لم يدرك من الفلسفة شيئا فان الفلسفة هي الحكمة والحكمة هى العلم النافع ( ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ) الفيلسوف محب العلم العامل به هو الذى يعلم حقيقة الموجودات وجميع مايتعلق بها من مقاصد وآلات تتوقف عليها ولو كان رينان فيلسوفا لكان من أخص اوصافه أن يعلم حقيقة القرآن وجوهره وما انطوى عليه من العلوم والفلسفة ولعلم مقدار تأثير الاديان فى نظام الامم ومنع الفوضى وان كل أمة لادين لها فلا نظام لها ومن لادين له لاذمة له ومن لاذمة له فلا خير فيه

ونسب الى السيد جمال الدين الافغاني أقوالا فى رده على محاضرة رينان * وانى اعتقد أن استاذنا السيد جمال الدين رحمه الله براء منها وكيف لا وهي أقوال تسلم ما قاله ( رينان ) طعناً على الاسلام والمسلمين واستاذنا الجمال ينسب الى صاحب هذا الدين جده محمد صلي الله عليه وسلم فهو أولي بالذب عن هذا الدين وقد عاشرناه منذ وطئت قدماه مصر الى أن فارقها واخذنا عنه كثيراً

من العلوم والفلسفة وغيرها ولم نر منه فى هذه المدة على طولها وكثرة اجتماعنا به انه رحمه الله يدين بما دان به رينان أو يقول مايشم منـــه رائحة الطعن على الاسلام والمسلمين بل الذى علمناه منه وعلمه منه أيضا الاستاذ الشيـخ محمد عبده انه فيلسوف حقاً متمسك بدين الاسلام صدقا مدافع عن ذلك الدين بكل ما أوتيه من قوة في العلم واجادة فى التعبير وقويم الحجة وتنوير المحجة كيف ودين الاسلام هو دين الفطرة

وها اناذا اذكر بعضاً يسيرا من آيات القرآن مبيناً ما اشتمل عليه من علوم الـكائنات ويوجد كثير من الآيات القرآنية يتعلق بالعلوم الـكونية سماوية وأرضية وجوية وكثير يتعلق بالتشريع وكثير بعلم ما وراء الطبيعة وانما اقتصرت على هذا البعض اليسير ليكون نموذجاً يرشد الناظرين لما اشتمل عليه القرآن وينبههم الي التفكر فى آياته والتدبر فيها ( وما يذكر الا أولو الالباب ) وليعلموا ان القرآن حرر العقول من ربقة التقليد وفك عقالها من قيوده فلم يقبل من المكلفين الا أن يكونوا مجتهدين فى إيمانهم وعقائدهم التى تؤخـذ من طريق العقل ولم يقبل من أحد ان يكون مقلداً فى ايمانه لان الله تبارك وتعالي نصب أدلة العقائد فى آثاره ومصنوعاته فقال ( ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة ) وقال تعالى ( وفى الارض آيات للموقنين وفى انفسكم أفلا تبصرون ) وقد سميت ذلك ( تنبيه العقول

الانسانية الى مافى آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية )
وقد ألقيت بعض ذلك بصفة محاضرة فى الجامعة المصرية والله
المسئول أن يرزقنا حسن القبول . وقبل الشروع في المقصود
نذكر مقدمة اجمالية نافعة تتضمن وصف القرآن بما اشتمل عليه
كما تتضمن الرد على رينان اجمالا

## ﴿ المقدمة ﴾

هذه الدعوى فرية بلامرية على دين الاسلام والمسلمين المتمسكين به . هذه الدعوى وامثالها كدعوى التعصب ودعوى أن الايمان بالقضاء والقدر من نتائجه تأخر المسلمين وغير ذلك من الدعاوى التى افتراها ورمي بها الاسْلام والمسلمين المتمسكين به رجال الغرب الذين يعادون الاسلام واهله ويبغضونهم لغير سبب سوى التعصب الدينى الاعمى وكراهة الحق بمجرد انه الحق والبعد عن الانصاف من النفس والجهل بحقيقة الدين الاسلامي الذى هو دين الفطرة والملة السمحة السهلة التى تدخل فى اعماق القلوب فتمتزج بها امتزاج الماء بالعود الاخضر ( ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة )

هذا الدين الذى يرجع فى مأخذه الى كتاب الله وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

هذا القرآن الذى يقول الله فيه : ما فرطنا فى الكتاب من شيء ويقول سبحانه فيه : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين :

دلت هاتان الآيتان على أن هذا الكتاب الذى هو الاصل

الذي يرجع الدين الاسلامي اليه والاساس الذي ينبنى الاسلام عليه لم يفرط فيه من شيء وانه تبيان لكل شيء فهو مبين لكل شيء بين في نفسه لايحتاج الى ما يبينه وانما خفاء بعض مايراد منه ويرمي اليه يرجع الي قصور عقول البشر لا اليه في ذاته فهو دال بعباراته واشاراته على حقائق الاشياء كلها وصفاتها وشؤونها وحركاتها فى الكيفيات والكميات شامل لجميع العلوم الباحثة عن حقائق الاعيان الكونية فى العوالم كلها سماوية وأرضية وجوية وجسمانية وروحانية وظلمانية ونورانية دال ومشتمل على جميع القوانين والنظم التى يحتاج اليها البشر وبها ينتظم معاشهم ومعادهم لا فرق فى ذلك بين القوانين التشريعية شخصية كانت أو غير شخصية مدنية كانت أوجنائية أو قضائية وبين القوانين الاقتصادية مالية كانت أو غير مالية خاصة كانت أو عامة وبين القوانين الاخلاقية ممدوحة كانت أو مذمومة. دال على ما يتعلق بالاعمال والاقوال حسناً وقبحا عدلا وظلما فلم يترك شاردة ولا واردة ولا صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج اليه نوع الانسان الا أحصاها وأتى عليها بعبارته أو اشارته حاضاً للانسان الذى فطره الله وخلقه مستعدا للنظر والبحث فى تلك العلوم على التفكر فيها وبذل الجهد فى استخراجها وتمحيص مسائلها والاخذ منها فكان ذلك الكتاب بحرا لا ساحل له عذبا فراتاً يغترف منه كل انسان بحسب استعداده وعلى حسب مشربه

فهو البحر العذب الزاخر الذى يرده كل متعطش للوقوف على حقائق الموجودات بجميع أنواعها وعلى صفاتها وشؤونها وأدوارها وما يتعاقب على الكائنات جميعها من الصور فى أطوارها خصوصا عالم الكون والفساد وهو الروض الزاهى الزاهر الذى ترتاض فيه عقول المفكرين من بني النوع الانسانى فتجتنى من ثمراته معرفة حقيقة كل موجود وكل مايترتب على كل ذرة فى كل كائن من الحكم والمصالح والمنافع على حسب الطاقة البشرية وينص هذا الكتاب على أن وراء ما علم البشر من ذلك من الموجودات والحكم والمصالح ما لا يعد ولا يحصى ولا يمكن أن يحصر ويستقصى ذلك مصداق قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو). وقوله سبحانه (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فبين سبحانه أن ماعلمه البشر ووقفوا عليه من الكائنات وعلموه من شؤونها وأطوارها وأحوالها على كثرته قليل من كثير

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً

وها أنا ذا شارع في المقصود ذاكر ما اقتصرت عليه من تلك الآيات فاقول وبالله التوفيق

## مايتعلق بتكوين الانسان ومبدأ وجوده

قال تعالى (والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) (النحل)

دلت هذه الآية على أن كل انسان حين خرج من بطن أمه لم يكن يعلم شيئا أصلا وليس معنى هذا انه غير قابل للعلم بل معنى هذا انه لم يكن يعلم شيئا بالفعل بل خرج من بطن أمه وهو مستعد قابل لتعلم العلوم كلها فهو عاقل بالعقل الهيولى فعقله كاللوحة المستعدة للنقش فيها ولكنها خالية منه لكن الله تعالى جعل للانسان السمع والبصر والفؤاد والنفس الناطقة والعقل الهيولى فدل ذلك على انه تعالى جعل فيه اسباب العلم بالفعل وأنه بالحواس الخمس التى اقتصر على ذكر بعضها واكتفى به عن ذكر باقيها روما للايجاز مع عدم الاخلال بفهم المقصود يدرك جميع المحسوسات فباللمس يدرك الملموسات وبالسمع يدرك المسموعات وبالبصر يدرك المبصرات وبالشم يدرك المشمومات وبالذوق يدرك المذوقات وبالفؤاد والنفس الناطقة والعقل يدرك المعقولات التى تستنتج من تلك المحسوسات ويترقى فيها من المعقولات الاولى الى الثانية ومن الثانية الى الثالثة وهكذا يتدرج فى المعقولات الى أن يصل الى العقل بالفعل وهو الذى به استحضار جميع معلوماته بحيث لايغيب عنه معلوم مما يدخل تحت طوق البشر ويدخل فى طور العقل وهذا العقل بالفعل انما يكون لافراد خصهم الله بفضله ليكونوا أئمة الخلق والقدوة الصالحة لمن عداهم ومرتبة العقل بالفعل متفاوتة في ذاتها وتكون للانبياء والرسل ومن على قدمهم

ومرتبة النبوة والرسالة متفاوتة أيضا اعلاها مرتبة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم فالانسان بطبعه وفطرته لايزال يطلب المزيد من المعلومات ويزداد علماً كلما زاد بحثاً وجدا واجتهادا فى طلب العلوم ولذلك جاء فى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : نهمان لايشبعان أبدا طالب علم وطالب مال. وما من انسان الا وفيه قوتان قوة فطرية للفكر والانتقال بها من معقول الى معقول كما ذكرنا وقوة عملية للعمل والانتقال بها من عمل الى عمل واختراع واستخراج ما أودعه الله فى طبائع الموجودات من الاسرار والحكم والمنافع من القوة الى الفعل وكما يتفاوت الناس فى القوة النظرية يتفاوتون فى القوة العملية بناء على تفاوتهم فى إدراك الحواس وتفاوتهم فى النفوس والعقول ومع ذلك فهو سبحانه لم يترك الانسان سدا بل لما كان الانسان لايدرك بعينه الاعيان المبصرة الا اذا اشرق عليها نور الشمس مثلا ولايمكنه أن يبصر شيئا منها فى الظلام الحالك وكانت نفوس البشر وعقولهم لاتدرك حقائق الكائنات وصفاتها وأحوالها وما يتعاقب عليها فى أطوارها وأدوارها الا اذا اشرقت عليها أنوار الشرائع والديانات أرسل الله الرسل بالشرائع لينبهوا الناس الى مبادىء العلوم جميعاً سواء كان الوقوف عليها من الضروريات أو الحاجيات أو الكماليات حتى تتوجه النفوس اليها وتبحث فيها وتنقب عنها ولكن القرآن الذى أنزل على رسولنا صلى الله

عليه وسلم انما نزل عليه بعد ان بلغ العالم أشده وصار مستعداً لان
يكون له شرعا كافياً وافياً بحاجاته العلميـة والعملية الضرورية
والحاجية والكمالية صالحا لجميع أحوال الانسان على كثرة تبدلها
ومصالحه على تعددها وتجددها فهو الشرع الملائم للنوع الانسانى
كل عصر وزمان مادام الملوان الكافى الكافل لبيان كل شيء لم
يفرط فيـه من شيء ولذلك كان هو الشرع الذى يجب على كافة
البشر العمل به والرجوع اليه وهو الشرع الباقى الى أن تنقضى
هـذه الدار دار العمل ولا شرع بعده قال تعالى « ما كان محمد
أبا احد من رجالـكم ولـكن رسول الله وخاتم النبيين »

هذه الآية دلت على أن الله تعالى أخرج كل انسان من بطن
أمه خالياً عن معرفة الاشياء كلها وان كان فى مبدأ خلقه لا يعلم
شيئا ولـكن الله سبحانه تفضل عليه فجعل له الحواس الخمس التى
منها السمع والبصر وجعل له الافئدة لعله يشكر الله تعالى على
هذه النعمة أى لاجل أن يشكره على هذه النعمة التى كمله بها ،
فأشارت هـذه الآية الى أن النفس الانسانية كانت فى مبدئها
خالية من المعارف مستعدة لها بأصل الفطرة التى فطرها الله عليها
فأعطاها الله تعالى هـذه الحواس لتستفيد بها المعارف والعلوم
ففطر الله الطفل بمجرد خروجه من بطن أمه على انه اذا أبصر
شيئا مرة بعد أخرى كان مستعدا لان ترتسم فى خياله ماهية
ذلك المبصر وكذلك اذا سمع شيئا مرة بعد أخرى كان مستعداً

لان ترسم فى خياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول فى سائر الحواس وبذلك صار خلق هذه الحواس فى الانسان سببا لادراك النفس الانسانية ماهيات جميع المحسوسات

وبيان ذلك ان الانسان مطبوع ومفطور على أن يكون فى وسط العالم من بنى نوعه فلا يمكنه أن يعيش ويحفظ نفسه الا بمخالطته للاجسام المحيطة به التى يأخذ منها وسائط معيشته واعضاء الحواس والجهاز العصبى هما المعدان لمخالطته لهذه الاجسام لكي يعرف بهما ما ينفعه منها وما لا ينفعه أو يضره فيسعى فى تحصيل ما ينفعه ويترك ما لا ينفعه أو يضره ولهذه المخالطة أسباب ووسائط موجودة فى الانسان فالاسباب فى حاجاته والوسائط هي أعضاء الحواس التى هى السمع والبصر والشم والذوق واللمس وقد شرحها العلماء شرحاً وافياً

وينبوع هذه الاحتياجات منوط بوجود الحياة وتدرك هذه الاحتياجات فى الانسان بمركز المخالطة ومتى كانت الاجسام الاجنبية غير مخالطة للسطح الظاهر من الجسم وكان مركز الادراك جاهلا لها فلا ينتج من ذلك الا مشقة محيرة لا يمكن التعبير عنها تؤدينا الى مسمى لا نعرف غايته وربما شبه ذلك بحركات الجنين لا سيما عند قرب ولادته وبصراخه أيضا بعد خروجه من الرحم وبحركات أطرافه غير المنظمة وعدم ادراك المخ للاجسام يعبر به عن المشقة المذكورة وعن تنهد الشبان فى سن البلوغ الذين

تربوا فى الجهل بعيدين عن الاشياء المرضية لشهواتهم

واما متى خالطت الحواس التى فى سطح الجسم البشرى تلك الاشياء اللازمة لاستيفاء الاحتياجات المذكورة فانها تنبه الفؤاد الذى هو مركز الادراك على وجودها فيعرفها هذا المركز حالا ثم يردها اليها فعند ذلك يصير ادراك الاشياء المذكورة أكثر وضوحاً للحيوان الذى يريد الاستيلاء عليها ولما لم يكن المركز الفؤادى فى سن الطفولية مشغولا بادراك سوى الاحتياج كانت الحركات اللازمة لاستيفاء هذا الاحتياج مطيعة لهـذا المركز وسريعة الحصول فان الطفل بعد ولادته تراه يوجه فمه من تلقاء نفسه نحو حلمة الثـدى اذا كان ثدى أمـه قريبا منه ويستمر على كونه لا يجهل مدة بين ادراك الاحتياج للشيء المضطر هو اليه وتتميم الفعل المعد لاستيفاء هذا الاحتياج حتى تلوح له معرفة ذاته ويقوى ادراكه بالادمان وكثرة التكرار وتنمو حافظتـه بالتصورات التى تتوارد على خياله فعند ذلك يجد سببا باعثاً على إيقاف تلك الافعال السريعة فهذه الكيفية هى التى بها تتم الافعال الاول الالهامية والمراد بالالهام هنا هو الميل الغريزى الـكائن فى كل حيوان الذى يكون به دائما متنبها بل مجبورا على تتميم واستيفاء احتياجاته

ان القوة الالهامية وان كانت غير اجنبية من الانسان الا ان عقله يضعف ارشاداتها ويجعل افعال الانسان داخلة تحت سلطان

الارادة ما أمكن

وهذه القوة الالهامية هى التى تقود الحيوانات لمعظم أفعالها وتجعل فيها من حين الولادة المعرفة التامة بجميع ما ينفعها وحفظ الشخص وتكاثر النسل هما الاصلان المحركان لجميع الافعال الالهامية التى تختلف فى جميع الموجودات الحية على حسب القوى الطبيعية التى خلقها الله تعالى فيها وعلى حسب درجة الفهم والتمييز المقدرين لها فان كل حيوان له مقدار من الفهم وله نفس تخصه ومع هذا فدرجة الفهم وان كانت فى بعضها عظيمة جدا الا انها لا تجاوز المسافة القاصية الفاصلة بينها وبين الانسان فانا لم نجد قط من الحيوانات الاكثر فهما احتياجاً الى معرفة نفسها ولا تأملا منها فى الموجودات ولا تعليلا لما يحصل حولها حتى تصل بالفكر والبحث والتأمل الى المعارف العليا السنية المتعلقة بوجود النفس والحياة المستقبلة

لهذا كله خص الله الانسان بالامر بالنظر فى مبدإ خلقه فقال ( فلينظر الانسان مم خلق ) الآية وبالتفكر فى خلق السموات والارض وما فيها فقال (ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة الى غير ذلك من الآيات القرآنية التى جاء فيها الامر من الله تعالى بالنظر والتفكر فى صنع الله الذى اتقن كل شيء

اذا علمت كل ما قلناه نقول لك ان تلك الماهيات التى ترتسم فى الخيال عند ابصار المبصر أو سماع المسموع وغير ذلك من

المحسوسات تنقسم الى قسمين فمنها ما يكون حضوره مقتضيا اقتضاء تاما لجزم الذهن باسناد بعضها الى بعض نفيا واثباتا كما اذا حضر فى الذهن ان الواحد ما هو وان نصف الاثنين ما هو كان حضور هذين التصورين وحده فى الذهن علة تامة كافية فى جزم الذهن بان الواحد محكوم عليه بانه نصف الاثنين وذلك ان الانسان اذا وصل الى أدنى سن التمييز ورأى مثلا شبحاً واحداً ليس معه غيره جزم بانه واحد فاذا رأى معه غيره جزم بان هذا الذى رآه ثانيا واحد آخر وان المجموع اثنان فمن هذه التصورات يجزم بان الواحد نصف الاثنين وهذا القسم هو عين العلوم البديهية وهى العلوم الاولية التى تؤخذ بواسطة الحواس أولا والقسم الثانى مالا يكون كذلك وهى العلوم الكسبية مثلا اذا حصل في الذهن ان الجسم ما هو وان المحدث ما هو فان مجرد حصول هذين التصورين فى الذهن لا يكفى في جزم الذهن بان الجسم محدث بل لا بد في ذلك من دليل منفصل وعلوم سابقة فيرجع الانسان فى ذلك الى ما يعلمه بالبديهة وهو ان هذا الجسم وجد بعد ان لم يكن موجوداً وان المحدث هو ما وجد بعد ان لم يكن فحينئذ يجزم الذهن بان الجسم محدث فعلمنا بذلك ان الحواس لا تكون وحدها سببا ووسائط فى العلوم والمعارف بل لا بد من شيء يكون فيه ماهيات المحسوسات وتحصل فيه * وان العلوم الكسبية انما تكسب بواسطة العلوم البديهية التى تدرك بواسطة الحواس التى

جعلها الله للانسان وان حدوث هذه العلوم البديهية انما يكون
عند حدوث تصور موضوعاتها ومحمولاتهـا وحدوث هـذه
التصورات انما يكون باعانة هذه الحواس على جزئياتها فظهر ان
السبب الاول الموجب للمعارف والعلوم فى النفوس والعقول هو
ان الله تعالى أعطى هذه الحواس افئدة اى مراكز ولـكل مركز
احساس مخصوص والـكل يعاون بعضه بعضا فلهذا قال الله تعالى
( والله أخرجكم من بطون أمهاتـكم لا تعلمون شيئا وجعل لـكم
السمع والابصار والافئدة لعلـكم تشكرون) ليبين سبحانه وتعالى
انه انما جعل لهم تلك الحواس فضـلا من رحمته لتكون سببا
لانتقال النفوس من ظلمات الجهل الى نور العلم ويأخذ كل انسان
منه حظه على حسب استعداده بالطريق الذى فصلناه من قبل

فالافئدة هى التى جعلها الله مراكز للحياة فجعل سـبحانه
المخ وامتداداته ممدا بتأثيراته للقلب واوعيته وجعل سـبحانه
بحكمته القلب واوعيته ممدا المخ وامتداداته عوضاعما يتحلل منهما
من التأثيرات الغريزية والجزئيات الجسمية فجميع الاحساسات
والتصورات والتركيب والتحليل جعله الحـكيم القـادر تحت
استيلاء هذه الافئدة لان الاجسام العضوية مختصة بالحياة وتنقسم
الى نباتات وحيوانات لانهما المتولدان اللذان ينموان بالغـذاء
فالنباتات مع كونها مختصة بالبنية العضوية يوجد فيها أصل الحياة
المشترك بينها وبين الحيوانات فتجذب من الارض والهواء الاصول

المغذية لها وتنضجها حتى تصير باذن الله تعالى مماثلة لها بواسطة القوة
الممثلة التى خلقها الله فيها ثم تنمو وتتوالد بواسطة القوة المنمية
والمولدة باذنه تعالى الى ان ينتهي أمرها بالموت غير انها لا تحس
بوجودها ولا تلتذ ولا تتألم ولا تحصل لها حركات انتقالية تقطع بها
المسافات بل الذى فيها هو حركات التمثيل والنمو والتوالد وأما
الحيوانات فمع كونها لها البنية العضوية المشتركة بينها و بين النباتات
لها أيضاً أعضاء مخصوصة قائمة بتتميم وظائف وافعال أخر تتمكن
بها من تجهيز الاشياء المحتاجة هى اليها فلها أعضاء نافعة في قبول
التأثيرات الاجنبية وتوجيهها الى مركز عمومي وهى أوعية الهضم
وأوعية الامتصاص والدورة الدموية والمترئس على جميع هذه
الاحشاء الاوعية المسماة الضفائر الحشوية ولها أعضاء أخر يمكن
للجسم بدخولها تحت سلطنة الارادة ان ينتقل من مكان الى
مكان بالحركة الانتقالية الاختيارية غير ان الجسم البشرى منها
يختص بجهاز حسى عظيم جدا و بفعل حركات كثيرة مختلفة فالنسر
مثلا وان كان ذا نظر حاد أكثر من نظر الانسان والكلب وان كان
ذا شم قوى أكثر من شم الانسان لكن مجموع حواسهما ليس
مثل مجموع حواس الانسان فى الاتقان فاذا نظرنا الى أعضاء الحواس
فى مجموعها نجد ان الجسم الانسانى أعدل الحيوانات كلها احساسا
فلذلك نجد ان اغلب الحيوانات وان كان اعظم من الانسان قوة
لكن مع هذا لا يتأتى لواحد منها كائنا ما كان آن يفعل حركات

عديدة مختلفة مثل حركات الانسان ألا ترى انك لا تجد لواحد
من تلك الحيوانات حنجرة كثيرة التحرك مثل حنجرة الانسان
فان حنجرته يقتدر بها على احداث أصوات مختلفة فى الغناء والكلام
والقراءة وغير ذلك بخلاف غيره من الحيوانات وهذا الذى ذكرناه
فى الجسم الانسانى وان كان كافيا فى تمييزه عن غيره الا اننا اذا
نظرنا الى قوته العاقلة العظمى التى بها صار له السلطان على كل ما فى
الارض من حيوان ونبات ومعدن وكان خليفة فيها وسخر الله
له بها السموات والارض وما بينهما لكثرت مباينته لغيره من
الحيوانات وامتيازاته عليها

غير ان الظواهر المختصة بالقوى العقلية التى للانسان وان كثر
عددها واختلافها وكانت بحسب الظاهر مخالفة لبقية الظواهر
المختصة بالحياة وكانت أيضا مطيعة لسلطان النفس الا انه يلزم ان
نعتبر نتيجة فعل الفؤاد الذى هو المخ وان لا نميزها باي كيفية
كانت عن بقية الظواهر الصادرة من الافعال العضوية فوظائف
الفؤاد فى الحقيقة مطيعة للنواميس العامة المستولية على بقيـة
الوظائف فتنمو وتنقص بتقدم السن وتتنوع بالعادة والذكورة
والانوثة والمزاج والاستعداد الشخصى وتضطرب وتضعف أو
تثور بالامراض والآفات فى المخ فقد تشوش انتظامها وتفسده
أو تحدث فيها غير ذلك

اما قابلية الفؤاد للادراك فذلك انه بواسطة المدركات بالحس

عند انتقالها الى مركز الحس بواسطة الاعصاب تحدث فى الفؤاد رد فعل أو تفاعلا فعندذلك يكمل الاحساس وينشأ التصور ولا بد لحصول الادراك الحقيقى أو التصور من أن يكون الفؤاد نفسه مدركا لهذا التأثير لان من المحقق أن الفؤاد اذا لم يتنبه من هذا التأثير تنبها تاما يحصل الاحساس لكن بدون أن يشعر به وكثيرا ما نشاهد أجساما تؤثر دائما في حواسنا بدون أن نشعر بها ألا ترى أن ملامسة الهواء الجوى وتثاقل العمود الهوائى على اجسامنا يؤثر تأثيرا دائما على سطحها بدون ان نشعر به أصلا وهذه النتيجة انما هى صادرة من تقرر العادة

كذلك حركة الاجسام الدائمة الغير الارادية

وهذا الفعل الذى به يدرك الفؤاد التأثير وهو المسمى قابلية الادراك يختلف كثيرا فى أفراد الانسان ففي بعض الاشخاص يكون خفيفاً وفى بعضها يثور ثورانا غريبا ويكون قويا فى سن الشبوبية ومتناقصا فى سن الفتوة وقريبا من الفقدان فى سن الشيخوخة ولم يعرف ما مجاس هذه الوظيفة فى أى جزء من الفؤاد .

وقد خلق الله أيضا فى الانسان قوة تسمى القوة الحافظة وهى التى بواسطتها يحفظ الانسان ويتذكر الاحساسات الماضية والظواهر العقلية المختلفة الناشئة من هذه الاحساسات

وهذه القوة تكون قوية جدا فى سن الشبوبية اذ فى هذا

السن يمكن اكتساب المعارف الكثيرة الاختلاف خصوصا التى لا تستدعى زيادة تأمل كاللغات والتواريخ وفروع المسائل الشرعية ثم تضعف بالتقدم فى السن و تزول و تفقد بالكلية ببعض الامراض المخية وقد لا يؤثر المرض الا فى بعض اجزاء من هذه القوة فيحصل عن ذلك للانسان ذهول عن الاماكن التى رآها ومن الاعلام الشخصية فقد وجد ان بعض المرضى لا قدرة لهم على ذكر بعض الاسماء ولا على الاعداد حتى لا يمكنه ان يعد من واحد الى ثلاثة مع ان الحافظة كانت فيهم جيدة وتوجد أيضا تغيرات فى الفؤاد بسبب الآفات المختلفة بدون أن يعرف المحل الذى ابتدأ فيه المرض .

وقد جعل الله أيضاً للانسان قوة حاكمة وهى التى بها يقف الانسان على حقيقة النسب الموجودة بين أجزاء الشىء الواحد على انفراده أو بين جملة أشياء متقاربة وهي أهم القوى العقلية اذ بواسطتها نكتسب جميع معارفنا وأول درجة منها هى مقابلة شىء بشىء آخر وهذه المقابلة متى اشتدت وطالت مدة الاشتغال بها سميت تأملا فاذا تسلسلت الاحكام المرتبطة ببعضها سمى ذلك تعقلا والعقل الذى هو أصل للصفات الانسانية وكمال الذهن ليس الا القوة الحاكمة التي بها يقتدر على تمييز الخير من الشر من أفعالنا

ومن المعلوم أن الحكم المستقيم وهو ما لا يكون الا

بمقابلات ونسب محققة الوجدان فيما بين الاشياء المحكوم عليها وبها امر مهم جدا فاذا حكمنا على جوهر سامّ بالجودة والنفع فقد سعينا بالمخاطرة فى اتلاف الحياة فحينئذ يكون هذا الحكم الفاسد الصادر منا ضاراً بنا وقس على هذا كل ماكان من الاحكام من هذا القبيل *ومن هذا تعلم ان اكثر المصائب والبلايا التى تؤذى الانسان إيذاء نفسانياً انما هو صادر من الخطأ فى الاحكام والظاهر ان اشتداده يضر باستقامة الحكم ولذلك لا ينتظم أمر هذه القوة الا بالتقدم فى السن مع طول التجربة

ثم ان الله تعالى قد يمنح اشخاصاً نعمة عقلية جزيلة فيدركون نسباً لايدركها غيرهم فان كانت هذه النسب مهمة جداً نافعة لمعشر الامم كان الاشخاص المدركون لها أرباب قريحة وحذق وهم يتفاوتون فى القرائح والحذاقة على حسب تفاوت مايدركون من تلك النسب وان كانت النسب المدركة أقل نفعاً واهمية فالاشخاص المدركون لها اصحاب عقول واختراع فقط ولم يعلم من تشريح المخ مجلس هذه القوة الخاص بها لكن قد قيل من زمن قديم ان محلها النصفان الكرويان للمخ الا انه لم يوجد الى الآن ما يعضد هذا القيل

ثم بعد هذا جعل الله فى الانسان حسا جبليا خرج عن حده وتسلطن بالكلية على غيره من الاحساسات الباطنة حتى صار الشخص الذى يشتد به ذلك الحس لا يسمع ولا يبصر ولا يعيش

الا بالامر الذى تعلق به هذا الحس وهذا الحس هو ما يسمى بالشوق فاذا اشتد بالانسان شوقه الى شيء فلا يبصر ولا يسمع ولا يعيش الا بحصول الشيء الذى اشتاق اليه واستهام به وقوته الحاكمة حينئذ لا ترشده الا اليه وقد شوهد فى الانسان اشتياقات مشتركة بينه وبين بقية الحيوانات وهى ما تكون ناشئة عن الاحتياجات العضوية المفرطة واشتياقات أخر لا تظهر الا بالمعاشرة * فالاولى متنوعة الى ما يكون لحفظ الشخص والى ما يكون لحفظ النوع فالتي لحفظ الشخص كالخوف والغضب والحزن والبغضاء والجوع المفرط وغير ذلك والتى لحفظ النوع وبقاء التناسل كشدة الاشتياق للوقاع المسببة للغيرة والهيجان * واما الاشتياقات المنوطة بأحوال المعاشرة وهى الثانية فليست الا الاحتياجات المعاشرية المرتقية الى الدرجة القصوى فان الافراط فى حب الرياسة الذي ينشأ عنه حب الامارة والافراط فى حب المال الذى ينشأ عنه البخل والافراط فى حب الانتفاع والبغضاء الذى ينشأ عنه حب الاضرار والافراط فى الطيش والخفة الذى ينشأ عنه الاشتياق الى الالعاب المضرة بالنفس او بالمال أو بالعقل ومعظم العيوب التى فى النوع الانسانى التى هى من الاشتياق والحب الشديد والعشق المفرط ونحو ذلك اما أصل أو سبب لجميع الافعال العظيمة الواقعة من الانسان خيرها وشرها فالجنايات العظيمة والفتوحات والحروب والتغلب على الغير كل ذلك انما يكون من أشخاص استولت عليهم هذه الاشتياقات واشتد بهم

ذلك الحس الكلى فصاروا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعيشون إلا بما اشتاقوا اليه وفعلوه

وبالجملة فان الله خلق فى الانسان العقل المسمى بالمخ الشوكى وهو الذى يبتدىء من الجمجمة وينتهى فى آخر العمود الفقارى العجزى وجعله مؤلفاً اولا من ثلاثة أفئدة المخ والمخيخ والحدبة المخية وكل واحد منها له وظائف خاصة به ووظائف معينة للحركات والتعقلات والتدرج فيها من معقود الى معقود فوقه غير أن بعض المؤلفين قال ان المخيخ هو المستولى على الوظائف التناسلية وبرهانه على هذا القول ان قوة التناسل لا تكون دائما الا على حسب نموه وهو أقل الاعضاء نمواً فى الاطفال الحديثة العهد بالولادة وان الاشخاص الذين يكون المخيخ فيهم صغيرا لا يكون عندهم ميل للنساء ومتى خصى انسان صغير السن أو حيوان كذلك وقف نمو المخيخ وان لم يفعل هذا الامر الا فى فى احدى الخصيتين ضمر المخيخ المقابل لتلك الخصية ضمورا كليا وكثيرا ما تحصل العنة عقب جرح أو تغير فى هذا العضو وأما على رأى غير هذا القائل من المشرحين فهو عضو الحركات ومجلس قوة الاندفاع الى الامام فقد شاهدوا بالتجربة انه متى أزيل هذا العضو تقهقر الحيوان الى الوراء قهراً وصار مطيعا لهذا التقهقر الذى يظهر أن مجلسه فى عضو آخر وربما كان المخ وقد ظهر من تكرار الامتحانات والتجربات التى فعلت فى كثير من

الحيوانات ان هـذا التقهقر لايشاهد الا فى الحيوانات الثديية والطيور فاذا قطع احدى ساقى المخيخ من هر أو ارنب شوهد ان ماقطع منه ذلك من هذه الحيوانات يدور متقهقراً على محوره بسرعة شديدة من الجهـة التى حصل فيها القطع حتى يجد مانعاً يستند اليه ومتى قطع من هـذا الحيوان الدائر الساق الآخر فقدت منه هـذه الحركة وقد اعتبر بعض الحـكماء هذا العضو كرئيس متسلطن على الاحساس العام واعتبره آخرون كمجلس للقريحة مثل المخ وهذه الآراء المختلفة قد استدل على كل منها بمقدار من المشاهدات لـكن لتعارضها لم يعتمد على رأى منها

. هذا قليل لخصناه من كثير قاله المحققون من المفسرين فى تفسير هذه الآية ومنها يعلم مقدار مادلت عليه من العلوم الكونية والعمرانية والحـكمية وعلى مقدار العلوم التى اشتمل عليها القرآن وحقية الدين الاسلامى الذى هو مستمد منـه وانه دين العـلم والعمل ولا يعوزه الا أن ينهض به اهله الذين اعتنقوه وان يتبعوا تعاليمه و يمتثوا بعلومه ويقيموا شعائره ويمتثلوا مافيه من الاوامر والنواهى حتى يعود الى هذا الدين رونقه الاول ومجده السابق ويحيا حياته الاولى ويأخذ الذين اعتنقوه مكانهم اللائق به وبهـم تحت الشمس ويجدوا ويجتهدوا فى تحصيل العلوم والمعارف على اختلاف أنواعهـا حتى يتضح لهم ان كل ما يحتاجون اليه منهـا موجود فى كتابهم القرآن الذى لم يفرط فيه من شيء فما من شيء

يخترعه مخترع او يكتشفه مكتشف الا تجد عندالتحيق ان القرآن اتى عليه بمنطوق عبارته او اشارته او مفهوم الموافقة او المخالفة والله الموفق

## كيفية بدء تكوين الانسان

قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) — وقال تعالى (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئاً).

فانظر رحمك الله كيف دلت هاتان الآيتان على المادة التى خلق كل انسان منها وأنها سلالة من طين أى صفوة الطين وخلاصته المسلولة منه

فآدم الذى هو أبو البشر خلق من هذه المادة مباشرة وأما من عداه من ذريته وأولاده فقد خلقوا منها بوسائط دلت عليها هاتان الآيتان أيضاً فدلتا على تقلب الانسان فى أدوار خلقه وأكوان فطرته الى سبع مراتب

المرتبة الاولى السلالة من طين وبيان ذلك أن الانسان انما يتولد من النطفة وهى انما تتولد من الدم بواسطة الخصيتين والدم انما يتولد من الكيلوس والكيلوس انما يتولد من الكيموس وهو انما يتولد من الاغذية نباتية كانت أو حيوانية فان هذه تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفوة الارض والماء وهى العصارة التى تتركب من أجزاء لطيفة أرضية ومائية

فالانسان فى الحقيقة متولد من سـلالة من طين ثم ان تلك السـلالة بعـد أن تواردت عليها أطوار الخلقـة وأدوار الفطرة وتعاقبت عليها الصور بمقتضى الكون والفساد صارت منياً ونطفة

المرتبة الثانية النطفة فى قرار مكين أى أنه تعالى بعد أن خلق مادة الانسان وهى السلالة وتعاقبت عليها الصور على الوجه الذى قدمناه جعلها نطفة فى أصلاب الآباء أى أنه تعالى خلق الحويصلتين المنويتين ووضعهما فى الصلب خلف المثانة وجعلهما مخزناً للمنى الى وقت الحاجة وقال بعض المفسرين ان المراد بالقرار المكين هو رحم المرأة فهو مخزن لها مصونة فيه

والمرتبة الثالثة تحويل النطفة الى علقة فهذه المرتبة مرتبة تحويل النطفة وهى المنى السائل من صفاتها الى صفات العلقة يشاهد داخل الرحم فى أزمنة مختلفة نقطة صـغيرة جداً أصلية مظلمة فى وسط سائل شفاف تحتوى عليه البذرة وتلك النقطة على رأى بعض العلماء ملتصقة بلفائفها وعلى رأى بعض آخر

سائبة سابحة فى وسط هـذا السائل * وحاصل المعنى أن النطفة تصير دماً غليظاً جامداً فصيرورتها دماً انما هى بافاضة أعراض الدم عليها فتصير دماً بحسب الوصف وهذا من باب الحركة فى الكيف والمراد بالحركة هنا حركة الكون والفساد فى الوصف وعطف هذه المرتبة وما قبلها بالحرف الذى يفيد الترتيب والتراخى للاشارة الى ما فى الانتقال من السلالة الى النطفة ومن النطفة الى العلقة من التراخى

المرتبة الرابعة التى أشار اليها بقوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة أى جعلنا تلك العلقة مضغة أى قطعة لحم بمقدار ما يمضغ كالغرفة مقدار ما يغترف وسمى هذا التحويل خلقا لانه سبحانه ينبت أطرافها كما ينبت النبات ويخلق اعراضا غيرهـا فسمى خلق الاعراض خلقا لها وكأنه سبحانه يخلق فيها اجزاء زائدة فكان هـذا من باب الكون والفساد فى الصور اى ان المادة خلعت صورة الدم وافيض عليها صورة اللحم وذلك من قبيل التصيير بحسب الذات كتصيير الماء حجرا وبالعكس وحقيقته ازالة الصورة الاولى عن المادة وافاضة صورة أخرى عليها ولا يخلو ذلك من الحركة فى الكيفية الاستعدادية وذلك بأن يأخذ استعداد المـادة لصورة الدم الفاسدة أى الزائلة فى الانتقاص ويأخـذ استعدادها للصورة اللحمية الـكائنـة فى الاشتـداد ولايزال الاستعداد للصورة الفاسدة يتناقص والاستعداد للصورة الـكائنة

يشـتد الى ان تنتهي المادة الى حيث تزول عنها الصورة الفاسدة فتحدث الصورة الـكائنة دفعة واحدة فتتوارد هذه الاستعدادات التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد هو المادة الأولى. ولكون حدوث الصورة الـكائنة دفعيا عطف بالفاء

المرتبة الخامسة هي التى أشار اليها قوله تعالى فجعلنا المضغة عظاما أى حولنا المضغة التى هى قطعة اللحم الغليظة عظاما صغارا وعظاما حسبما تقتضيه الحـكمة وذلك بالتصليب لمـا يراد جعله عظاما من المضغة وهذا أيضا من قبيل الكون والفساد فتحويل المضغة التى هي لحم الى العظام وتصييرها كذلك تحويل وتصيير بحسب الوصف فيكون من الباب الاول وذلك بان تصير المضغة اولا اجساما غروية ثم اجساما غضروفية ثم عظاما* وفى كلام العلامة البيضـاوى اشارة الى مجموع ماذكرناه وهو يستلزم القول بأن النطفة والعلقة متحدتان فى الحقيقة وانما الاختـلاف بالاعراض. والاوصاف كالحمرة والبياض مثلا وكذلك المضغة والعظام متحدان فى الحقيقة وانما الاختلاف بنحو الرخاوة والصـلابة وان العلقة والمضغة مختلفان فى الحقيقة كما انهما مختلفان بالاعراض والظاهر انه تتعاقب فى جميع هذه الاطوار على مادة واحـدة صور على حسب تعاقب الاستعدادات الى ان تنتهى الى الصورة الانسانية

المرتبة السادسة هى التى أشار اليها قوله تعالى فـكسونا العظام لحما فالله تعالى جعل تـكون العظام واللحم معا مرتبطين ببعضهما

فلا ينشيء سبحانه جزئيات من العظم الا ويكسوها تعالى جزئيات من اللحم مع كون تعظم العظام التي تأخذ في الظهور من الاسبوع التاسع يكون مستمرا

من هذا الذي فصلته هـذه الآية يتنبـه الانسان الى شيء يضطره بمقتضى فطرته الى البحث فيه وهو ان خلق الانسان على هـذه الاطوار لا بد أن يكون بطريق التوالد بين ذكر وانثى فيبحث فيما خلقه الله في الذكر وفيما خلقه الله في الانثى حتى يكونا مستعدين لأن يتولد بينهما الانسان فيجد ان الرجل يختص بالمرتبـة الاولى والثانية فالمرتبة الاولى وهي الدم المتولد من الغذاء المتولد من السلالة والنطفة المتولدة من الدم كلاهما في الرجل وباقي المراتب انما تكون بعد استقرار المنى في رحم المرأة فاضطر الانسان لان يبحث فيما يتعلق بالرجل والمرأة فوجد ان الله تعالى لمـا أراد حفظ النوع الانساني في هذه الدار ليعمرها الى أجل مسمى كما أشار الى ذلك قوله تعـالى واذ قال ربك للملائـكة انى جاعل في الارض خليفة أوجد وظائف لحفظ هذا النوع على ماينبغى كما اوجد وظائف حفظ الشخص كذلك فلم يجعلهـا كبعض الوظائف متمحضة لان تكون تحت سلطان الارادة فقط وقاء بحرام احتياج التوالد اذ لو كان كـذلك لحصل اختـلال كبير في تكاثر افراد النوع بل جعل سبحانه وتعالى في أفراد النوع الانساني ميلا غريزيا واحساسا باطنيا وجدانيا محلسه

فى أعضاء التناسل فهو فى هذه الاعضاء بمنزلة الحس الباطنى الذى للمعدة وهو وجدان الجوع وهذا الميل فى الحقيقة منوط بأعضاء التناسل فلا يوجد اذا لم تكن هذه الاعضاء قادرة على فعل وظائفها ولذلك لايحس به أصلا اذا حصل الخصاء فى سن الصبا

واما أسباب هذا الحس الباطنى فلا يمكن ادراكها الا بالوجدان كالحس بألم الجوع وغيره من الوجدانيات وقد ذكروا ان من أسبابه وجود المنى ومكثه فى الحويصلات المنوية ولا ريب فى ان هذا الامر سبب معين على ذلك من حيث ان تطلب الوقاع يقوى اذا ترك فعله زمانا طويلا اذ فى هذا الزمن تكون المادة المنقذفة كثيرة جدا فليس هذا سببا فريدا من حيث ان المنهمكين فيه لهم ميل عظيم للوقاع بخلاف الرجال الاقوياء ذوى العفة فان هذا الميل يكون فيهم قليلا وهذا الحس ايضا يوجد فى النساء وكل من المخ والمخيخ له دخل فى مبادى هذه الوظيفة وتأثير المخيلة فى هذا الامر أوضح برهان على ذلك ويوجد سوى ماذكر فى كل من هذين العضوين الاخيرين ميل له دخل فى تولد هذا الامر وفعل الرجال فى حال الوقاع هو ان يدخل الرجل فى أعضاء تناسل المرأة عضوه المعد لقذف السائل العلوقى ولاجل حصول هذا القصد المزدوج ينبغى ان يكون عضو الرجل مكتسبا بحسب مايظهر فيه مما يسمى بالانتصاب يبسا كافيا لادخاله فى أعضاء تناسل المرأة وهذه الظاهرة تحصل للرجل اذا كان مشتاقا للوقاع بسببه

هذا الحس الباطنى فيندفع لذلك العضو مقدار عظيم من الدم بواسطة الشرايين المتوزعة فى جسمية المجوفين ثم يحتقن هذا الدم في الاوعية فعند ذلك يحصل احتقان حقيقى دموى فى النسيج القابل للانتصاب من هذين الجسمين المجوفين وفى قناة البول والحشفة ايضا وهذا الاحتقان ينبغى ان ينسب الى تهيج يحصل فى هذه الانسجة بسبب ثوران شهوة الوقاع ومع هذا فعضو الرجل يكتسب صلابة ضرورية يتم بها دخوله فى القناة الفرجية الرطبة والتنبه الذى يحصل له يسرى الى باقى الجهاز التناسلى من الرجل فعند ذلك يكثر افراز الانثيين كما يكثر افراز اللعاب من الغدد اللعابية عند المضغ ثم يجىء المنى عند ذلك بكثرة فى الحويصلات المنوية فتتنبه من هذه الحويصلات ثم تفيض وتدفعه بواسطة القناة القاذفة له الى قناة البول فتتقلص هذه القناة بدورها ويحصل هذا الانقباض التشنجى لجميع العضلات المجاورة هناك فبمساعدة هذه القوى المحركة لبعضها ينقذف المنى بعيدا فى المهبل ووظيفة المرأة فى هذا الوقت أى وقت دخول عضو الرجل فى القناة الفرجية قاصرة بالكلية فان اعضاء تناسلها الظاهرة تتهيأ تهيأ به يحصل دخول عضو الرجل فى قناة فرجها دخولا مجزيا الا اذا وجدت عوائق تعوق دخوله كغشاء البكارة وكالاحتقان الحيوى الذى يحصل لنسيج الفرج القابل للانتصاب وفعل العضلة العاصرة للفرج * ومنفعة هذين الاخيرين ان يضغطا على عضو الرجل ويجعلا

مصادمته تامة ما أمكن والمرأة تشارك الرجل فى ثوران الشهوة الملذذة فيوجد فى بظرها وفرجها احتقان انتصابى بكيفية كالكيفية التى توجد فى الرجل وزيادة وهذا يحصل بواسطة نتيجة ادخال عضو الرجل فى قناة فرجها فعند ذلك يستمر الاختلاج الملذ مدة الوقاع ويتزايد على التدريج حتى يصل الى درجة تبقى فيها المرأة مصابة بحالة تشنجية مدهشة مماثلة للحالة التى تحصل للرجل فحينئذ يحصل فى المبيضين والبوقين تأثير يحصل منه العلوق * وهذا الذى شرحناه على الوجه المذكور هو الفعل التناسلى الغريب الذى منه ينشأ التوالد لكنه سواء استولت عليه الارادة او لم تستول عليه ليس الا فعلا تجهيزيا شبيها بالافعال المتقدمة على الهضم فى كونه ينفع فى تقريب وصب المواد المتصرفة من الرجال والنساء لأجل تكوين شخص جديد

ومن الواضح حسب التجارب المعقولة فيه ان المنى الناشيء من الرجال هو المعين على حصول العلوق واما السيال المسمى بالمذى والسيال المسمى بالودى فليسا الا بمنزلي مسوغ ومحلل للسائل المنوى لكن لم يعلم الى اى محل من الجهاز التناسلى من النساء يصل هذا السائل المندفع وقد اختلف فيه رأى العلماء على حسب ما اختاروه من الطرق فى حصول التناسل فبعضهم قال ان هذا السائل المنوي يقف فى المهبل لكونه زعم انه يمتص منه ثم يتجه الى المبيضين من سبل الدورة وبعضهم قال انه يصل الى الرحم

ثم يتصاعد بخارا حتى يصل الى المبيضين فيحصل العلوق وبعضهم وهو الاخير قال على سبيل الظن انه يصل الى الرحم ثم يؤخذ منه بالبوقين اللذين هما قناتان متصلتان بالرحم والمبيضين وهما على هيئة البوقين فيحصل لهما عند ذلك الانتصاب فيوجهانه الى المبيضين ومنهما الى الرحم والظاهر ان الرأى الاخير هو الحق فانه قد علم ان العلوق لا يتم الا فى المبيضين كما يتضح هذا من الحمل خارج الرحم ، ومن المعلوم المحقق ان المني يندفع الى الرحم ولا بد ان طرف عضو الرجل حال الوقاع يكون واصلا الى وسط فوهة الرحم ولا فائدة لذلك الاوصول السائل المنوى الخارج من الرجل الى تجويف الرحم على انه قد وجد السائل المنوى في الرحم كثيراً وقد تحقق من التجارب المعقولة للعلوق الصناعى ان السائل المنوى المفروض لا يكفى وحده فى حصول العلوق بل لابد ان يصادم المني بنفسه المبيضين ولاسبيل حينئذ لوصوله اليهما الا البوقان ودليل قرب هذا الرأى الى الحق ايضاً انه شوهد فى الحيوانات التى فتحت عقب النزوان صيوان البوق يلامس المبيضين وشوهد أيضا وقوف البذرة فى هاتين القناتين أى البوقين وأيضا يدل على هذا القول قوله تعالى فى سورة الحج ( ونقر فى الارحام مانشاء الى أجل مسمى) فقد قرأ الجمهور بالنون من الاقرار وقال المفسرون ان الجملة استئنافية مسوقة لبيان حال الجنين بعد خلقه وتوارد الاطوار عليه أى نجعل الاجنة بعدئذ

مستقرة وباقية فى الارحام ما نشاء من الزمن مستمراً ذلك الى
الى أجل مسمى هو وقت الوضع وعن يعقوب انه قرأ و نقر فى
الارحام بفتح النون وضم القاف من قررت الماء اذا صببته فالمعنى
على هـذا و نصب فى الارحام ما نشاء من ماء الرجل الى أجل
مسمى وعلى كلا القراءتين فهذه الآية تدل على أن المنى يصل الرحم
ولـكى تعلم أن للمرأة دخلا فى الشخص الجديد نقول ان العلماء
قالوا ان المبيضين في المرأة بمنزلة الخصيتين فى الرجل فان باستئصالهما
يحصل العقم كما يحصـل من استئصال الخصيتين ولانهما فى سن
البلوغ ينموان نمواً ظاهرا فيصير ثقلهما الذى كان يعادل عشر
قمحات معادلا فى هذا السن درهمين وفى هذا السن أيضا يشاهد
فى سطحهما حويصلات صغيرة لم تـكن موجودة فيهما من قبل
البلوغ وقد اعتبر معظم العلماء هـذه الحويصلات منشأ للبذرة
ثم تزيد وتزول فى سن اليأس ومعظم المجربين قد وجـدوا فى
الحيوانات التى ذبحت بعد العلوق وزمن قليل حبة من الحبوب
الصغيرة المـكونة للمبيضين قد تبين فيها بقعة صغيرة منها تنشأ
الاوعية والاعصاب ويزيد حجمها كلما زاد حجم هذه البذرة ثم
تنفصل وتدخل فى قناة معدة لها فى بعض الحيوانات وفى أحد
البوقين في النساء ثم تنتقل منها الى الرحم أو ما يقوم مقامه كالبيض
فى الدجاج ونحوه فحينئذ يمكن أن يقال لا فرق بين جميع الحيوانات
فى هذه الوظيفة الا من حيث انه فى بعضها تتفرخ هذه البذرة

في الخارج بعد أن تباض منها وبعضها تتفرخ فى الباطن بعد أن تستودع فى مخزن معد لها فمن الاختلاف المذكور لهذه الوظيفة تنقسم الحيوانات الى فرقتين عظيمتين حيوانات تتوالد بالبيض ويتربى جنينها خارجاً عنها فى البيض وحيوانات يتربى جنينها فى رحمها وتلده موجودا حياً فعلى مقتضى ماتقدم يكون من المحقق ان المرأة تنشأ منها هذه البذرة المنفصلة من المبيض التى يبقى فى محلها أثر يشاهد بعد سقوطها فى الرحم

واما تأثير المنى فى وظيفة التوالد مدة سقوطه فى المبيض أو فى الرحم فبيانه ان الفعل العضوى لهذه الوظيفة ليس الا جزئيا ولذلك عجزت حواسنا عن مشاهدته ولم نعرف من ذلك الا أن ملامسة المنى للمبيض ضرورية لحصول هذه الوظيفة العجيبة ومما يحقق هذا الامر نتيجة هذه الوظيفة التى تستدعى كسائر الوظائف كمال انتظام جميع الاعضاء وكمال الخواص الحيوية للاعضاء القائمة بها ومن حيث انها مخالفة للافعال الكيماوية والطبيعية فمن اللازم أن نعدها من الوظائف العضوية الحيوية وقد بذل بعض المجربين غاية جهدهم فى أن يقفوا على حقيقتها ومع ذلك لم يحصلوا الا كلاما ظنيا ولكننا لا يمكننا أن نصرف النظر عن هذا الكلام الظنى بالكلية بل لابد من أن نتكلم باختصار على ما اشتغل به العلماء من الاقوال الظنية فنقول ان أقوالهم ترجع الى ثلاث

الاول انهم قالوا ان الجنين من حيث انه يوجد قبل فى مبيض

الاناث ويتكون فيه بفعل خاص بهذا العضو الذى تنفرز منه أصول الجنين فيكون ما في المبيض محتوياً على جميع هذا الكائن الجديد غير أن هذا الكائن من حيث انه لا يختص بحياة وحده فهو كبيض الدجاجة البكر الذى هو وان كان محتويا على جميع أصول الفرخ الا انه لا يمكن أن يتفرخ بنفسه فهذا الجنين لا يقبل الحياة الا من مماسة منى الذكر له وبهذه الطريقة يمكن توضيح مشابهة الاطفال لآبائهم بحسب ما يحصل لهم من التنوعات الشديدة بمنى الذكور الذى يختلط بالبذرة التى يكون قوامها حينئذ هولاميا فتأثير هذا السيال فى البذرة الرخوة كتأثير الخاتم فى الشمع اللين الذى يبقى حافظا لهذا الاثر فكلما صرف الرجل اكثر قوته في الوقاع كانت المشابهة اكثر قربا ويمكننا أن نشرح أيضا انتقال الامراض الموروثة بهذه الكيفية ثم ان باطن الخلقة بحسب الظاهر ناشئ من الانثى بعكس ظاهرها فهو ناشئ من الذكر ففى تزو حيوانين مختلفى النوع كنوع فرس وحمار يكون الناتج منه وهو البغل مشابها للذكر من الظاهر وللأنثى من الباطن وهذا القول يشهد له بعض الشهادة ما قرره الفقهاء من أن العبرة فى حل الاكل وحرمته بالأم فالكلب اذا كانت أمه شاة يؤكل والجمل اذا كانت أمه كلبة لا يؤكل والبغل اذا كانت أمه فرساً أكل وان كانت أمه حمارة لا يؤكل

القول الثانى الطريقة القديمة التي قالوها فى اختلاط المنيين

مني الرجل ومني المرأة في الرحم وهي المشروحة في مؤلفات أبيوقراط وجالينوس وغيرهما وقد قال بها أيضا بعض المتأخرين وأهل هذه الطريقة يقولون ان كل عضو من جسم الرجل يدفع جزئيات تسمى عضوية وهـذه الجزئيات الناشئة من الأعين والآذان وغيرهما للرجل والمرأة تصطف حول قالب باطن يتكون منه أساس البنية يأتي من الرجل ومن المرأة ولعل هذه الطريقة هي طريقة المشابهة للابوين

القول الثالث طريقة البذريين وهي أحسن الطرق وفيها أقوال الاول قول المتقدمين فهؤلاء اختاروا أن احياء النطفتين يكون في الرحم وان ذلك يحصل بواسطة عنصر عصبي في غاية اللطافة وبذلك قال فيثاغورس أو بامتزاج مغنطيسي بالسائل المنوى للذكر . الثاني قول القائلين بان محل البذر هو المبيض وهؤلاء قالوا ان الاجتماع لايكون الا في المبيض وهو رأى معظم المتأخرين الآن غير انهم اختلفوا في حصـول ذلك هل هو بامتصاص المادة المنوية بعد دخولها في المهبل وذهابها للمبيض من طريق دورة الدم وهـذا رأى بعضهم واختاره روجيس أو بواسطة البخار المنوى أو بمزج مغنطيسي أو باثارة كهربائية أو من مجرد الاضطراب الذي يحصل بالوطء أقوال لهذا الفريق

القول الثالث قول القائلين بالحيوانات الصغيرة وقد اختلفوا أيضا فمنهم من يرى ان التلقيح يحصل في الرحم بدون مشاركة

البذرة ومنهم من يرى ان الحيوانات المذكورة تجذب في الرحم حويصلات المبيض فتتراكم معها هناك فيحصل التلقيح ومنهم من فرض ان واحدا من تلك الحيوانات يجذب بذرة في الرحم يدخل فيها برفعه صماما صغيرا منها وفي هذه اللحظة يحصل التلقيح واما بريافوس ودوماس فرجعا الى رأي بقراط وارسطاليس واختارا ان تجويف الرحم هو مجلس التلقيح وأكدا ذلك بامور منها انهما لم يجدا في تجرباتهما شيئا من تلك الحيوانات في البوق ولا في المبيض مع انهما وجدا كثيرا منها في الرحم وقرنيه ومنها أن البذر محتاج قبل الخلط الى أن يغلف بطبقة مخاطية ولا يأخذ ذلك الا من البوق في ذهابه من المبيض الى الرحم ومنها انهما لم يشاهدا حصول التلقيح الصناعي للبذر الذي أخذاه من المبيض مباشرة مع انه لاشئ أسهل عندهما من احياء البذر الذي اجتازه البوق لكن يشكل على أن رويش شاهد المادة المولدة أعني المني في بوق امرأة زانية قتلها زوجها عند ذلك وبعضهم وجد مثل ذلك في أناث حيوانات قتلها كذلك وبعضهم شاهد مثل ذلك في كلاب وبقر

وحيث علم عندنا انه لا يمكن تلقيح بيض الضفاضع الا بتغطيتها قبل ذلك بدهان مخاطي سميك ساغ لنا أن نقيس على ذلك حصوله أيضا في النساء واما البذور التي وجدها بريقوس ودوماس غير قابلة للتلقيح فيظهر انهما لم يفصلاها بقوة من

المبيض الا بعد أن احدثت الآلات تغييرا فيها

وعلى كل حال فحركة التلقيح خفية علينا ونهاية ما يقال فيها ان واحـدة من الحويصلات المحوية فى المبيض تعظم بسرعة بعد البلوغ وتعلو على سطح العضو ويرق غشاؤها الظاهر شيئا فشيئا ثم فى وقت الوقاع تنشق فتبرز منها بذرة صغيرة هى البذرة الحقيقية فتدخل حالا فى البوق الموضوع طرفه بهيئة المحجم على المحل الذى فيه البذرة من المبيض فالمحفظة التى تحتوى على البذرة قبل أن تنشق سماها بعضهم بالجسم الاصفر ثم اذا انشقت المحفظة حصل منها جرح صغير دام يلتحم تدريجا ويترك فى محله ثنيـة أو اثرة هابطة يختلف عمقها وتلك الثنية أو الاثرة المسماة بالجسم الاصفر والظاهر ان هذا هو المختار عند برياقوس ودوماس

قال علماء هذا الفن وتحقيق هذين القولين يحتاج لتفتيش جديد. قال بعضهم انى شاهدت فى مبيض النساء حتى قبـل التلقيح كتلة مصفرة بل كتلا فى حجم حبة البسلة وتارة فى حجم بندقة وبعد شقها شاهدت فيها احيانا حالة فجاجة كدرنة رئوية غير لينة وتارة كمنظر مادة متجمدة محية تلتصق بما يلامسها وتارة كمنظر كيس يأخذ فى اللين من مركزه الى دائرته والبذور التى تحصل منها على سطح المبيض تارة تكون عظيمة جدا فاذا تمزقت عند كمالها حصل منها تجويف لايلتحم الا ببطء ويترك فيها انخفاضا عميقا يكون أثرا يدل على وجودها فيـه قبل وما يحصل لبذرة يمكن

حصوله لثنتين أو ثلاث أو اكثر وسواء حصل انتشار البذرة بواسطة الاضطراب الذى يحصل حالة الوقاع أو بثوران كهربائى أو بخار منوى أو حيوانات كبيرة أو صغيرة أو بأى عنصر كان من المادة المنوية فيلزم بعد كل تلقيح أن ينفصل من المبيض بذرة يحصل منها حالاحهما كان تنوعها كائن يشابه الكائن المنتج لها سواء وصل عنصر المنى باستقامة الى نطفة المرأة أولم يحصل الا بعد أن دخل فى الدورة العامة فهذا هو الثابت بالمشاهدات ولا يعرف منها اكثر من ذلك وهذا الذى تشير اليه الآية على وجه الاجمال فهي تشير الى ماهو ثابت بالمشاهدة بدون تعرض لما تختلف فيه ظنون الناس مما لايتعلق به غرض القرآن

والى الآن لم يتحقق وقت ظهور البذرة فى الرحم قال بقراط انها فى اليوم السادس تصير كرة صغيرة شفافة فى وسط سائل شفاف ورأى بعضهم انها لاتشاهد الا بعد نحو خمسة عشر يوما وبعض المؤلفين الذين مشوا على مذهب القدماء فى أن التلقيح يحصل فى الرحم قال ان البذرة تتكون أولا ثم الاغشية وبعضهم عكس الحال لكن لم يعين أحد منهم اليوم الذى يمكن فيه مشاهدة العلقة فى الرحم ووقعت تجربات كثيرة منهم منها أن لابد لنقل البذرة من المبيض الى الرحم من بعض أيام ولكن لم يعلم هل هـذا الزمن واحد لجميع أفراد كل نوع من الحيوانات والظاهر ان هذا الدور ثلاثة أيام للارنب ومن ستة الى سبعة أو ثمانية للـكلاب وذهب

بعضهم الى أن الجنين لا يبتدئ فيـه الشكل البشرى الا فى نحو اليوم الخامس والثلاثين وأنه يكون حينئذ فى عظم النحلة وذهب ارسطاليس الى أن الجنين يكون فى الاربعين فى حجم علقة صغيرة من علق الثعابين وبعضهم زعم أن الجنين فى ثلاثة أسابيع لا يوجد فيه أثر للرأس وان البطن يظهر على شكل نتوء مخروطى مستند على الغشاء الباطن للبذرة ولما كان هذا الذى فصلناه يقتضى ان مدة تكوين العلقة لم تعلم على وجه التحقيق ان كان الزمن واحدا لجميع أفراد كل نوع من الحيوانات أو مختلفاً والظاهر انه مختلف لم يتعرض القرآن الا لما هو محقق وهو تحول النطفة علقة

وشكل العلقة البشرية يشبه فى الابتداء من بعض الوجوه علقة الثعابين فهى ساق منحن على هيئـة دائرة تقرب للتمام وفى تلك الحالة قد يكون طولها خطين أو ثلاثة نحو الاسبوع الثالث ولو فرضت استقامتها لبلغت اربعـة خطوط أو خمسة وأحد طرفيها منفتح ومستدير والآخر ينتهى بطرف يشبه طرف حرف الحاء وهذا الساق مجوف نصفه شفاف ويظهر انه مملوء بسائل صاف يشاهد فى وسطه حتى للعين العادية خيط معتم أبيض مصفر هو المجموع المخى الشوكي

ويظهر فى العلقة من الامور السلسلة وهى الجزء الاساسى للجسم فتظهر قبل جميع الاعضاء منفردة زمناً طويلا وشكلها لا يختلف فى ذاته فى الابتداء عنـه فى بقية ازمنة الحياة الرحمية

وهذه العلقة الى عشرين يوما لا تكون مستقيمة ولا منتفخة من وسطها وان الرأس فيها يكون أقله نصف طولها وتقوسها يكون أقرب الى شبه دائرة كلما كانت أقل نمواً كانت مستديرة وان هيئة محيطها الظاهر يختلف قليلا فى الابتداء عما يكون فيما بعد وأما محيطها الباطن أى تقعيرها فيستدعى انتباها عظيما بسبب التغيرات التى يكابدها فان فى هذا السطح المقعر تظهر جميع الاشياء على التوالى بهيئة عجيبة مدهشة فالفلك السفلى والاطراف والكتلة التى تملأ الصدر والبطن تنمو وتتسلطن قبل غيرها على هيئة أزرار تخرج من فروع شجرة أو إبط نبات والدائرة الظاهرة تمتلىء شيئا فشيئا واذا امتلأت دائرة العلقة الباطنة والظاهرة كانت مضغة فالجبهة تبعد عن المصمص والجزء الصدرى يكون منتفخاً من الامام ويشاهد فيه القلب الذى قد تكون ضرباته مدركة لكن الدم الدائر فى الاوعية لايزال أبيض ثم ان الرأس لايكون حينئذ الا قدر ثلث الجسم تقريبا ويشاهد فيه أثر ارتسام العينين الا الحنك فانه يكون مختلطا بالحفر الانفية ويتضح الحبيل السرى فيكون طوله من اربعة خطوط الى خمسة ويكون شكله على هيئة قمع ينحصر فى قاعدته جزء من الامعاء ويشاهد بين نقطة اندماغه وطرف العامود الفقارى المقوس الى الامام والاعلى درنة صغيرة على هيئة ذنب موشحة بفتحة أو جملة فتحات هى آثار الشرج واعضاء التناسل وكل من الفتحتين الاذنيتين تكون على هيئة

شقين وفى نحو الاسبوع العاشر يأخذ كل من الجفنين والشفتين والاذنين فى التكون وتصير جدران الصدر منسدة والاطراف العليا اكثر وضوحا تملن بحلمتين ويأخذ كال الاعضاء فى الظهور على التدريج فحينئذ يخرج هذا الكائن الجديد عن طور المضغة وتصير المضغة غالبها أو كلها عظاما صغارا وعظاما حسبما تقتضيه الحكمة وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جعله عظاما من المضغة وذلك بان تصير المضغة جسما غرويا ثم غضروفيا ثم عظاما فتكسى العظام لحماً على وجه ماقدمناه أيضا وتعظم العظام يأخذ فى الظهور من الاسبوع التاسع ويستمر نمو الاعضاء الى أن يستعد ذلك الكائن الى المرتبة السابعة فينشئه الله خلقا آخر فاول مايتكون من الاعضاء الرأس على هيئة قضيب مستطيل ثم يكون نموه على حسب نمو باقى الاعضاء ثم فى الاسبوع الخامس يتميز الوجه من الجمجمة وأول اعضاء الحس مشاهدة هو الفم وقد شاهده بعضهم فى اصغر علقة شاهدها فبموجب ذلك يوجد من الثانى عشر الى اليوم العشرين وتكون هيئته حينئذ فتحة عريضة جداً بيضاوية أو مثلثة والفك العلوى من حيث انه بارز مدة كون السفلى قصيرا جدا يصير فم العلقة البشرية مشابهاً لفم علقة الحية وقد اختلف علماء التشريح فى كيفية تكون الشفة السفلى فظن جميعهم انها تكون أولا مركبة من جزأين جانبيين ينتهى حالهما بان ينضما على الخط المتوسط كالقطعتين العظيمتين الحاملتين لهما لكن لا يتم

ذلك الا في الشفة العليا الاعلى رأى أن الفك يكون من عظمتين أما على حسب الرأى الذى اختاروه الآن من أن هناك عظماً بين الفكين العلويين فيلزم أن يكون نمو هـذه الشفة من ثلاثة أجزاء أحدهما متوسط والآخران جانبيان وبانضمامها الى بعضها يتولد عمودان أو عرقان أنفيان شفويان وعلى مقتضى هذا البيان وضح المشرحون تكون الشفة الارنبية البسيطة والمزدوجة التي على حسبها لاتوجد على الخط المتوسط بل بالغ بعضهم حتى قال انها تتكون من اربعة أجزاء منفصلة لـكن للظن فى ذلك مجال. قال بعضهم ان فى الدور الذى بحثت فيـه وجدت الشفة السفلى فى ابتـداء تمييزها والذقن برز منها الجزء المتوسط الى الدماغ وحافتها السائبة والرقيقة جدا ليست مقطوعة بثلم أصلا بل كانت على شكل نصف دائرة منتظمة جدا

وبالجملة وجدت فى علقات لها ستة أسابيـع كما وجد فى غيرها ممن له عشرون يوما ونيف ان حافة الشفتين متكونة جيدا وليس فيها انقسام فالتزمت أن أشك فى وجود عظم بين الفكين فى النوع البشرى

واما الانف فالصحيح ان في اليوم الثلاثين يمكن ان تميز فتحتاه المتقدمتان وتكونا مستديرتين ويشاهـدا اعلى الفم حالا وتتجها الى الامام فتشبها قصبتين صغيرتين مسودتين وقد لاتشاهد هاتان الفتحتان فى بعض مضغات لها من خمسة أسابيع الى سبعة

أسابيع وانما يشاهد محلهما نتوء بارز ومن هنا قال بعضهم ان عضو الشم لا يمكن ان يعرف الا من الاسبوع السادس الى الثامن ولكن الصحيح ما اسمعناك . واما الأعين فتظهر مع الفم ان لم توجد قبله وقد رآها بعضهم في علقة طولها لم يتجاوز أربعة خطوط ولا بد من وجدانها اذا فتش عليها فى الاسبوع الرابع وتكون حينئذ خالية من الاجفان والزوايا العينية والجهاز الدمعي وتكون مشابهة لقرص مستدير قطره نصف خط محدب قليلا لذلك لم تكن حينئذ منفصلة عن الجسم بل تكون كشق سطح ضيق جدا ولا يشاهد الا بالبحث عنها بسن ابرة وفى كل عين نكتتان احداهما بيضاء مصفرة على شكل مركز والاخرى سوداء على هيئة دائرة تحتوى على الاولى من جهة ومن الجهة الاخرى تتصل به الجلد والنكتة المركزية تكون أولا أعرض من الدائرة المسودة والمحيطة بها لكن هذه عموما تتسلطن على الاولى فى آخر الاسبوع السادس وهاتان النكتتان هما ولابد الصلبية والقرنية التى لم تزل الى الآن ممتمة ولا تختلف عن طبيعة الاظفار الا بلونها واما الاذنان فتظهران مبكرتين وغاية ما يتأخر تميزهما الى الثلاثين ولا تكابد الأذن عظيم تغير الى غاية الاسبوع السابع تقريبا والاذن تظهر أولا على هيئة فوهة جراب جلدى أو انخفاض هرمي ضيق قليل العمق ثم بعد أيام تشبه ببادىء الرأى لسعة علقة وبدل ان يكون لها ثلاث زوايا يكون لها أربع فى الغالب ولا يكون

حينئذ لصيوانها أثر أصلا وتكون فتحته مساوية للجلد وفى خمسة أسابيع الى ستة تبتدىء الروايا الداخلة لهذا الانخفاض الصليبي أو المعين بان تبرز عن الجلد فتظهر الزنمة أولا ثم الوقرة ثم بقية الاجزاء وتمكث زمنا ما قبل ان تنحنى على الرأس وعلى نفسها واما اطراف هذا الكائن الجديد فتظهر كلها مع بعضها متساوية الاقطار تقريبا فالطرفان الصدريان أى العلويان يخرجان من الجزء المقدم للاشرطة الجانبيه من الساق الفقري بمسافة متساوية تقريبا بين طرف الرأس وطرف العصعص على فرض استقامة الجنين والطرفان السفليان يشاهدان أعلى العصعص بخط تقريبا ويكون هذا العصعص منحنيا من الخلف الى الامام كأنه مختف فى المسافة بينهما واليد تظهر أولا على شكل لوح ذى حافة سائبة رقيقة غير منقسمة والرجل تختلف عنها اختلافا محسوسا ثم من الثلاثين الى الاربعين يعرف العضد مع اللوح ويرى الكائن حينئذ كانه طير والى الخمسة والاربعين يعرف الساعد والساق وتبتدىء نقط الاصابع فى الانفراد عن بعضها وفى خمسين الى خمسة وخمسين ينفصل المرفق والعضد عن الصدر بعد ان كانا كانهما ملتصقان بواسطة غشاء والعقب والركبة ينعزلان أيضاً وتتميز أصابع اليد عن بعضها ولا تمتد الطبقة اللزجة التى تضم قواعدها ببعضها الى أطرافها الظفرية ويزول شبه الرجل باليد وتتهيأ أصابعها كاصابع اليد واما العصعص واعضاء التناسل ففى هذه الاسابيع الثلاثة الاول

ينتهي الجذع من الاسفل بطرف دودي وهو الذنب العجزى العصعصى المقوس الى الامام ويعتدل ببطء كلما امتلأ تقعيره. ولا تلبث حافتاه قليلا حتى تتصلا بكتلة البطن أو تختفيا فى أصل الطرفين الصدريين أي اليدين وتكون بين هذا الاصل وبين السرة والرجلين مسافة لا تبلغ الا خطا أو خطا ونصفا الى خمسة أسابيع أو ستة وتبقى زمنا طويلا على شكل تقعير ثم تتولد أعضاء التناسل وتملأ ذلك التقعير ففي نحو اربعين يوما أو خمسة واربعين تظهر نقطة سوداء أمام العصعص وهي محل الشرج ويشاهد قرب السرة حدبة مخروطية محفورة بميزاب جزؤها من جزئها السفلى هو محل الذكر ان كان الجنين ذكرا أو محل البظر ان كان أنثى وهذا هو الدور الاول للجنين فى بطن أمه

واما الدور الثانى للجنين فيكون كما يأتى : جرت العادة أن السرة لا تتكون فى الحقيقة الا فى خمسة عشر يوما أو عشرين والحبيل السرى يستتر تحت الكتلة الحشوية البطنية غير أن جدران البطن لا تلبث قليلا حتى تظهر تلك السرة وتوجهها من أعلى الى أسفل ومن الجوانب نحو الجزء المقدم ثم تجمعها بالساق السرى والمشيمى أعنى الحبيل وفى الاسبوع السادس أو الخمسين يوما تأخذ اعضاء الجنين فى الكمال بسرعة فالاعين يزيد تحدبها وتحيط بها بعد ذلك حالا الدائرة الجفنية وتحنى على محيطها ويعطى طرفا القطر العمودى بهذه الدائرة بواسطة تقربهما لبعضهما يعطيان لها الشكل البيضاوى

فلذلك توجد الزاويتان وفي تسعة اسابيع أو عشرة تتلامس حوافى الاجفان وكأنها تلتصق ببعضها وهذه الحوافى تكون فى الابتداء رقيقة حادة ثم يصير سمكها كسمك الاجفان نفسها وهذه الاجفان وان كانت تغطى مقدم العين الا أن فيها بعض شفافية فلا تمنع مشاهدة اللون فالنكتة المركزية التى ذكرناها سابقاً تصغر وتصير اعرض فيتحقق حينئذ بسهولة كونها هى القرنية الشفافة وان سطحها الخلفى ملامس لجوهر ملون بهذا اللون والدائرة السوداء تعظم أيضا ويشاهد عند التأمل انها تنسب الى الصلبة وان لونها ناشىء من الطبقة التى تغشاها من الباطن ويحصل فى الانف حينئذ تغير واضح فالبروز يتكون على الشفة بارتفاعه التدريجى يقهر فتحته المقدمة على أن تحنى ببطء الى الاسفل واما باطنه الذى هو جزء من تجويف الفم يبتدىء الى الاسبوع الخامس فى الانفصال عنه فى مدة الاسبوع السابع فلا يكابد الفم تغييرا كثيرا وانما يزيد عمقه

واللسان الذى يبكر ظهوره يعرض ويرق ويبرز الفك السفلى زيادة والشفاه تتميز عن بعضها ويتم عزلها ولكن لا يتغير شكلها وأما الظاهرة التى كانت كوخذة علقة فى الجنين الذى له أربعة أسابيع أو خمسة تكتسب الصفات الخاصة بها بسرعة فأجزاء الصيوان تبسط وتظهر شحمته والاطراف تصل بسرعة الى كمالها فى هذا الدور والاصابع فى الاسبوع الثامن والتاسع تنعزل عن

بعضها أو لاتبقى ممسوكة الا بطبقة دبقة شفافة وتتميز سلامياتها الثلاث وتكون منثنية الى الامام ويشاهد على ظهر السلامي الاخيرة نكتة هى أصل الظفر وتظهر خطوط معتمة على محل الشط وليس فى طول العضد بالنسبة للساعد وطول الفخذ بالنسبة للساق غرابة ورسم الكتف والحرقفة لا ينكر حينئذ ولا يكون منظر الشرج نكتة سوداء كما كان أولا وانما فى اليوم الستين يكون على شكل بروز صغير مخروطى أصفر ناصع غير مثقوب والقضيب يأخذ فى الاستطالة وقاعدته تحاط بحوية سميكة ويشاهد تولد ثلم مستدير فى طرف السائل هو محل اكليل الحشفة * ونمو العجان والحوض والخثلة يبعد الحبيل السرى جداً عن هذه الاعضاء بعد أن كان فى الدور الاول داخلا بين الاطراف السفلى قريباً من العصعص فاذا قرب لمركز البروز البطنى ودائرة السرة ينتهى حالها بأن تنضم بالساق السرى الذى يمر منها وتستطيل معه بحيث لايوجد حد فاصل بين الجلد من أحدهما والغلاف من الآخر وهذان الدوران فى تكون الجنين وما فيهما من الاطوار أشارت الآيه اليها ونبهت العقول عليها بقوله تعالى فى المرتبة السابعة (ثم أنشأناه خلقاً آخر) فأشار بالعطف بثم الى أن هناك وسائط وأطوار سابقة على هذه المرتبة كما أشار الى الوسائط والاطوار التى بين المرتبة الاولى والثانية بعطف الثانية على الاولى بالحرف المرتب المفيد للتراخى وفى قوله خلقاً آخر دلالة على أن

خلق هذا الكائن في المرتبة السابعة مباين لخلقه الاول مباينة ما أبعدها ألا ترى أنه تعالى جعل العلقة والمضغة فى ابتدائهما مكونتين كالذرة أوكجرثومة موضوعة على حويصلة وهذه الحالة تشاهد في بعض الديدان البسيطة ثم تصير جسما صغيرا دودي الشكل ليس له أطراف ولا رأس متميز وهذا مايشاهد في الديدان الخاتمية وأودع الله تعالى فى باطن هذا الكائن وظاهره بل فى كل عضو من أعضائه وفى كل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين ولذلك قال ابن عباس فى هذا كما رواه عنه العوفى هو تصريف الله إياه بعد العلوق فى أطواره فى زمن العلقة والمضغة وما بعدهما الى استواء تقلب الاطوار أى الي اتمام نمو الاجنة كما قال تعالى ثم أنشأناه خلقاً آخر اه

وهذه الاطوار التى تتقلب وتتعاقب على هذا الكائن الانسانى فى الحياة الرحمية مطابقة للاحوال الدائمة فى الحيوانات الاخرى لاننا اذا قارنا درجات اطوار نمو هذا الكائن الانسانى في تلك الحياة بدرجات اطوار غيره من الحيوانات أمكننا أن نستدل على المطابقة المذكورة بأدلة عديدة منها أن المضغة فى الابتداء تتكون كالذرة كما قلنا كما نشاهد كذلك فى الديدان البسيطة ثم تصير جسما دوديا كما فى الديدان الخاتمية ثم يبرز الذنب وتظهر الاطراف باستواء وهذا مايشاهد فى معظم ذوات الاربع وأوله

ما يظهر فى المجموع العصبى الاعصاب وعقدها وهذه حالة ذوات الاعصاب من الحيوانات الغير الفقرية ثم يتميز كل من النخاع الفقرى والجمجمة وحدباتهما ويظهر رسم المخيخ والمخ وهـذا مايشاهد فى السمك والحيوانات الزاحفة ثم تتزايد هذه الاجزاء اكثر من الحدبات ويزيد الدماغ بالتدريج حتى يصير كدماغ الطير والحيوانات ذات الثدى ثم تستوى قصيصات المخيخ والمخ وتعظم حتى تصير مخ آدمي فهذه كيفية تقلب الاطوار للاحوال من الحيوانات الدنيئة المرتبة بالنسبة للانسان واذا تتبعنا نمو العظام نشاهد انها تتكون أولا أجساما غروية ثم تصير غضروفية ثم عظمية لكن تكون حينئذ منفصلة جملة قطع ثم تلتحم فيما بعد وهذا هو الذى أشار اليه القرآن فى آية قصة عزير عليه السلام حيث قال له وانظر الى العظام كيف ننشزها أى نلينها ونعظمها أى نجعلها أولا اجساما لينة غروية ثم غضروفية ثم نجعلها عظاما ونضع فيها الحياة التي تليق بها ولذلك قرأ ابن كثير ونافع ويعقوب ننشرها من انشر الله الموتى أحياها فاذا قوبل نمو العظام المذكورة بنمو عظام السمك وغضاريف الحيوانات الفقرية التى تتناسل بالبيض نتج من تلك المقابلة دليل مصحح لما ذكرنا وهكذا اذا بحثنا فى جميع الاجناس ويدل لهذا أيضا ما جاء في قصة عزير عليـه السلام حين مر على قرية خاوية فقال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت

مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ) كيف نخرت عظامه وتفرقت أوصاله ولنجعلك آية للناس (وانظر الى العظام كيف ننشزها) فبين له كيف مات هو وكيف مات حماره وجعل انشاز عظمه وانشاز عظم حماره واحدا فيهما فدل على عدم الفرق بين تكون الانسان فى أطوار حياته الرحمية وبين تكون غيره من الحيوانات فى تلك الاطوار لكن لما كان تكوين أطوار الآدمى ونموه أسرع مرورا من أطوار باقى الحيوانات كان إدراكها عسرا والمقابلة بين الانسان وغيره من الحيوانات وبين الانسان ونفسه فى أطوار حياته على اختلافها كما أشارت الى ذلك هذه الآية من الابحاث المهمة التى يجب على كل عالم خصوصاً من يريد مزاولة علم التشريح النظر فيها بفكر ثاقب ورأى صائب وكما ان قوله تعالى (ثم انشأناه خلقا آخر ) يدل على ما ذكرناه يدل أيضا على أن الله تعالى انشأه انسانا وجعله حيواناً ناطقا فكان حياً مريدا قادراً سميعا بصيرا متكلماً متفكراً بالقوة وقد أمر الله الانسان بالنظر فى كل ما قدمناه أمرا صريحا فقال في آية أخرى ( فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ) فأشارت هذه الآية الى انه وان كان اكثر اعضاء الاب بل كلها لها مشاركة فى جميع الاجزاء التى منها النطفة لكن اعظم جزء له دخل فى ذلك هو الدماغ وما تحته من الترائب أى القلائل والمراد هنا الميل الغريزى الكائن فى كل

حيوان الذى به يكون دائماً منتبهاً بل مجبوراً على تتميم واستيفاء احتياجاته ولا شك ان التأثير الحاصل فى المركز المخى من الاشياء المعدة لاستيفاء احتياجاتنا لا يكون دائماً الا على حسب الحالة التى تكون عليها الاحشاء حين حصول التأثير فمثلا اذا عرض غذاء لحاسة البصر أو الشم وكانت المعدة مضطرة اليه صار إدراكه ملذاً والاشتياق للاستيلاء عليه قوياً بخلاف ما اذا كانت المعدة ممتلئة فان ذلك الغذاء بعينه تهمله النفس أو تكرهه فيحدث مركز الادراك فى الحيوانات حركاة مختصة بتبعيده ومثل هذا يقال أيضاً فى الافعال الخاصة بوظيفة التناسل وغيرها فقد اتضح مما ذكرنا ان مركز الادراك لايحكم بتأثير الاجسام الاجنبية الا بحسب أهميتها للاحشاء وعدم أهميتها لها وينبغى ضرورة لاجل حصول هذا الحكم ان التأثير المدرك بالحواس الظاهرة المنتقل من الاعصاب الى مركز الادراك ينعكس من هذا المركز فى الحال الى الاحشاء وهذه الكيفية وان كانت ضرورية الا أن هذا التأثير لا ينعكس نحو العضو المحتاج اليه فقط بل يسرى الى جميع المجموع العصبي ويؤثر فى جميع الاعضاء بسرعة عظيمة كالبرق فاذا فرضنا أن حيوانا مفترساً كالذئب مثلا وضع فى مكان يمكنه فيه أن يرى انثاه ونعجة مثلا فى آن واحد لم تنقل الحواس الى المخ الا تأثير الشكل الظاهر لهذين الحيوانين فحينئذ يكون الحكم الصادر من المخ على نوعين فبرؤية انثاه تتنبه اعضاء التناسل

وبرؤية النعجة تتيقظ شهوة الاكل فاذا كان احتياج الاكل متسلطنا فيه جرى على صيده ويفترسه وان كان احتياج الباه متسلطناً هجم على انثاه فيصير التأثير الحاصل من حاسة بصره واصلا فى آن واحد لاعضاء الهضم واعضاء التناسل ومن هذا وامثاله نجزم ان هذه التأثيرات تحدث أفعالا مختلفة على حسب حال الاحشاء وانها تنعكس دائماً الى جميع الاحشاء فى آن واحد وان ما كان منها اكثر احتياجا يرد تأثيره الى المخ بعنف اكثر من غيره ومن هذا التأثير الحاصل من الاحشاء على مطلوباتها لمركز الادراك والافعال المعدة لاستيفاء هذه المطلوبات توجد الظواهر الذهنية حتى لم يجعل الحيوان زمناً بين إدراك هذه المطلوبات وبين الحركة المختصة باستيفائها كانت أفعاله صادرة من القوة الالهامية لاغير لان هذه القوة الالهامية على حدتها هى التى تتم بها أفعال الحيوانات التى فى أدنى درجة من التركيب وكذلك الحيوانات الاكثر تركيباً حتى الانسان عقب ولادته لكن كلما أخذ المخ فى النمو والذهن فى الاتقان لاحت للانسان معرفة نفسه فاذا وصلت هذه الوظائف لأعلى درجة فى النمو صارت التأثيرات الحشوية لا سلطان لها على المخ كما كانت قبل فعند ذلك تصير الافعال المعجلة من الاحتياجات الاولية متنوعة بالقوة الذهنية تنوعا ماوتحدث من هذه القوة احتياجات جديدة يظهر انها لا تعلق لها بالاحتياجات التى غايتها حفظ الحياة وكيفية انتقالها المجموع

العصبي لا تخالف كيفية الانتقال الاولية وهذه القوة لها عقد وشعب فى الاحشاء الباطنية وفى الصلب وهما الترائب فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر وانما أمر الله الانسان بذلك أولا لان التركيب العجيب فى بدن الانسان اكثر مما فى غيره كما هو مشاهد مع انه متولد عن المادة البسيطة وثانياً أن مشاهدة الانسان لهذه الاحوال فى اولاده وأولاد سائر الحيوانات دائما مستمرة وكل ذلك يدل على وجود الصانع الفاعل المختار وثالثاً ان هذه الاحوال التى نشاهدها كذلك تدل على أن هذه الاحوال ثابتة له في نفسه أيضا فيصير كانه اطلع عليها فى نفسه ورابعاً كما ان هذه الاحوال تدل على وجود الصانع المختار الحكيم تدل كذلك قطعا على صحة البعث والحشر والنشر وذلك لان حدوث الانسان انما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة فصارت سلالة وخلاصة من طين ثم ان هذه السلالة بواسطة ماخلقه الله فيها وفى الحبوب من القوة الممثلة تتمثل حتى تصير من جنس الحبة فى أصلها وبهذه الواسطة تنبت الحبة التى وضعت فى الارض سبعة عيدان فى كل عود سنبلة فى كل سنبلة مائة حبة فالعيدان يكون منها التبن غذاء لكثير من البهائم التي تأكل النبات وما يتغذى باللحوم يرجع غذاؤه أيضا للنبات والحبوب كالبر من غذاء الانسان ومن هذا الغذاء يتولد الدم ومن هذا الدم تكون النطفة من أجزاء كانت متفرقة فى بدن الابوين بل اذا دققت النظر تجد أن الانسان فى

نشأته الاولى كان بسبب جمع أجزاء تكاد تكون متفرقة فى جميع العالم فلما قدر الصانع جل شأنه على جمع تلك الاجزاء المتفرقة حتى جعلها حيوانا ناطقا حيا مريدا قادرا سميعا بصيرا متكلما متفكرا بالقوة وجب بالضرورة أن يكون هذا الصانع قادرا على جمع أجزاء الانسان وجعلها خلقا سويا كما كان أولا بلا فرق بعد موته وتفرق أجزائه ولذلك قال تعالى ( يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقنا كم من تراب ثم من نطفة ) الى آخر الآية كيف وان الانسان المنصف ليعجب غاية العجب وتأخذه هذه الدهشة بما يشاهده في البذرة التى خلق منها الانسان وما يتعلق بخلقها وما يتوارد عليها من الاطوار والادوار مما فصله علماء هذا الشأن ومما يشاهده من تغذية الجنين فى بطن أمه من ينابيع مختلفة فصلها أولئك العلماء وفى كيفية غذائه منها وفيما يتغذى منه ووصول الدم اليه بلا واسطة والدورة الحقيقية فيه الى آخر ما أطال به أولئك العلماء وأمر الله الانسان بالنظر فيه والبحث عنه ثم اذا نظر أيضا الي أطواره بعد الولادة التى أشير اليها فى قوله تعالى ( ثم نخرجكم طفلا ) الآية وشاهد ما يتعاقب على الانسان من الاطوار بعد الخروج من بطن أمه ويتوارد عليه من الصور والحركات بحسب الكم وبحسب الكيف والوصف وانه لايزال يخرج من كيف ووصف الى كيف ووصف آخر ويخرج من كم ومقدار الى كم ومقدار آخر كل ذلك على حسب استعداده وما

فطره الله عليه فذلك كله لايجعل أدنى مجال للشكوك والاوهام في أن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وان كل ما جاء به من وقوع البعث والحشر والنشور حق لاريب ولا شك فيه ولذلك قال تعالى في آية أخرى تقريرا لنا وبيانا لان ذلك مما لايستطيع أحد انكاره (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه نطفة في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين — هذا مانقلناه عن بعض المحققين من علماء التفسير وما نقلناه قليل جدا بالنظر لما ذكروا في هذه الآية وما ذكروه على كثرته قليل بالنسبة لما يعلمه الله تعالى مما دلت عليه الآية من العلوم الكونية والعمرانية فلا يليق بالعاقل الذي أنصف وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد الا ان يقول بقلب مطمئن بالايمان كما قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين أي أحسن المقدرين فان الخلق يطلق ويراد منه التقدير ويطلق ويراد منه الايجاد والمعنى الاول هو المراد بقرينة انه لا موجد الا الله تعالى فليس هناك موجدون حتى يكون الله أحسنهم

## ما يتعلق بتكوين العالم كله

قال تعالى (سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى) قرأ الجمهور قدر بتشديد الدال وقرأ الكسائي بتخفيفها وكلاهما بمعنى واحد قال: تعالى فقدرنا

فنعم القادرون قالوا المعنى فقدرنا فنعم المقدرون فالمعني على كلا القراءتين انه تعالى قدر كل شئ بمقدار معلوم فقوله والذى قدر يتناول جميع المخلوقات فى ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات كل واحدة منها بمقدار مخصوص وقدر كل واحد من الكواكب بمقدار كذلك وقدر الارض ومافيها كل واحدمنها بمقدار مخصوص وكذلك قدر العناصر والمعادن والنبات والانسان بمقدار مخصوص فقدر لكل كائن من الكائنات بمقدار مخصوص من الجثة والعظم وقدر لكل واحد منها مدة معلومة من البقاء ومن الصفات والالوان والطعوم والروائح والاوضاع والمراكز والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقدارا معلوما كما قال تعالى (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) فهذه الآية وحدها مما لا يفى بشرحها وتفصيل مادلت عليه من العلوم الكونية والعمرانية المجلدات كيف وقد تضمنت كل المباحث التي تتعلق بعلم طبقات الارض وبعلم المعادن والنبات والحيوان والانسان وبعلم الهيئة باقسامه الثلاثة الوصفى والطبيعى والعملى وسائر العلوم الطبيعية على كثرتها لانه دخل فيها جميع الاشياء حتى العوالم كلها علويها وسفليها داخلة فيما دلت عليه هذه الآية وأما قوله فسوى فالتسوية المفهومة من قوله فسوى والتقدير المفهوم من قوله قدر هما عبارة عن التصريف فى الاجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لاجل

أن تستعد لقبول قوى خاصة على حسب استعدادها الذى اقتضاه مزاجها وكل مزاج مستعد لقوة خاصة وكل قوة فانها لا تصلح الا لفعل معين وقوله فهدى عبارة عن خلق تلك القوى فى تلك الاجزاء والاعضاء والاجرام علويها وسفليها بحيث يكون كل قوة مصدرا لفعل معين باذن الله تعالى فيحصل من مجموعها تمام المصلحة وعموم المنفعة وتمام الحكمة باذن الله تعالى وإرادته ولنذكر بعض الآيات التى جاء فيها تفصيل ما أجمل فى هذه الآية لان ذكر الكل يحتاج الى شرح يطول ومهما طال الاجل فقل أن يمكن اليه الوصول فنقول :

## الكلام على خلق جميع الدواب التى على وجه الارض

قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ) قال الالوسى كل حيوان يدب على وجه الارض وادخلوا فى ذلك الطير والسمك وظاهر كلام بعض ائمة التفسير ان الملائكة والجن يدخلون فى عموم الدابة ولعلها عندهم كل ما دب وتحرك مطلقا ومعظم اللغويين يفسرها بما سمعت اه

وانما ادخلوا الطير والسمك لان كلا منهما حيوان يدب على وجه الارض فى الجملة فيدخل في عمومها ثم قال والماء هو جزء مادة وخصه بالذكر لظهور مزيد احتياج الحيوان بعد تركيبه اليه

وان امتزاج الاجزاء الترابية به الي عير ذلك اه

فما من دابة الا وتنتهى مادتها الي سلالة من طين وهى خلاصة الطين المركبة من اجزاءمائية واجزاء لطيفة طينية وايراد الماء فى هذه الآية منكرا وايراده معرفا فى قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حي لان القصدفى هذه الآية الى معنى الافراد شخصاً أو نوعا والقصد فى تلك الآية الي الاشارة الى معني الجنس وان حقيقة الماء مبدأ كل شيء حي وقوله تعالى فمنهم من يمشى على بطنه وذلك كالحيات والسمك ونحو ذلك وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا مجاز للمبالغة فى اظهار القدرة وانها وان كانت تزحف بلا آلة لكنها اشد عدوا من الماشى على رجلين او اربع فهو أشد من المشي واقوى ويزيد ذلك حسناً مافيه من المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشى وقدم هذا الجنس لأنه اعجب حيث كان يزحف بغير ارجل او قوائم زحفا أشدمن المشى واقوي وقوله ومنهم من يمشى على رجلين كالانس والطير وثنى به لأنه يلى الاول فى انه أعجب وقوله ومنهم من يمشىعلى اربع كالنعم والوحش وهو آخر الاجناس الثلاثة وعدم ذكر من يمشى على اكثرمن اربع كالعناكب وام اربعة واربعين وغير ذلك من الحشرات التى تمشى على أكثر من أربع اما لعدم الاعتداد بها مع الاشارة اليها بقوله تعالى ويخلق ما يشاء واما لان اعتماد ماله اكثر من أربع من الحيوان انما هو على اربع كما

تزعمه الفلاسفة واما لان عادة العرب جرت على انهم يكرهون التكرار فوق الثلاث ويقتصرون على الثلاث ويريدونها لذلك وما فوقها كما فى الحديث الصحيح ( فانا خيارمن خيار من خيار ) ويرشد الى ارادة العموم ماجاء فى مصحف ابى من قوله ومنهم من يمشى على اكثر بدل ماجاء فى القراءة المواترة من قوله ومنهم من يمشى على اربع وكون ماجاء فى مصحف ابى لم يثبت قرآنا لايمنع من انه دليل على ارادته بالتكرار ثلاث مرات لان العرب تكره الزيادة عليها مع إرادة ما فوقها فصار هذا عرفا معروفا عندهم والقرآن انما جاء على قواعد اللغة العربية ودلت هذه الآية على أن بين جميع الاجسام الآلية ارتباطا فنبهت هذه الآية علماء الاسلام الى ذلك فلذلك بحثوا فوجدوا انه كما يوجد الارتباط بين الاجسام الآلية يوجد بين اعضاء الحيوانات ووظائفها بل يكون بينها أشد منه فى غيرها ويكون فى بعضها اتم منه فى البعض الآخر واليك بيان بعض ما قالوا في ذلك

ان التناسل فى الموجودات الآلية التى حياتها قاصرة على التغذية والتناسل يكون فيها تابعاً للتغذية كانه نتيجة لها وأما فى الحيوانات ذات الاحساس والحركة فان التغذية تكون حاصلة من الهضم لان الحيوان الذى لايتحرك لايتم تناسله بواسطة الزوجية وكلما زادت الوظائف كانت اعضاء الوظائف الزائدة مستولية على الأولى ألا ترى ان الدورة التى هى من وظائف

التغذية وفعل القلب الذى هو من متعلقات الدورة وان كانا غير عامين كسائر ظواهر التغذية لكن متى وجدا كانت جميع الظواهر تحت أمرهما ومثل ذلك فى الوظائف الحيوانيـة فعل المراكز العصبية فانه يستولى على الظواهر العامة وان الوظائف الحيوانية تكون مستولية على جميع وظائف التغذية والتناسل وان وظيفة التغذية مستولية على غيرها فان اعضاء الوظائف الحيوانية لاتتم وظائفها على ما ينبغى الا اذا كانت متغذية وان وظائفها هى التى يحدث عنها فعل اعضاء الوظائف الغذائية الثمانية بحيث يظهر ان الحياة فى أتم الحيوانات بنية انما هى نتيجة فعل العضو المركزى للوظائف الثمانية مع فعل أهم اعضاء الوظائف الحيوانية أعنى الدورة والفعل العصبى

ان فعل الدم فى المجموع العصبي وفعل المجموع العصبى فى آلات الدورة الدموية وباقي الظواهر الحيوية يعين على استمرار هذين الفعلين العظيمين اللذين اعتبرا من أعظم الوظائف الحيوية ويضاف لذلك التغيرات التى تحصل فى البنية وفى ظواهر الحياة أعنى الامراض التى يكثر طروها على الحيوانات اكثر من غيرها من الموجودات الآلية وعلى كثرة الامراض هى تضاعف تركيب البنية والارتباط الـكائن بين الاجزاء وبين فعل الاعضاء المركزية الرئيسية التى لايمكن حصول اضطراب فى فعلها بدون سريانه بباقى الاعضاء فمن ذلك ينتج معرفة كون الاحوال الخارجية تؤثر

فى البنية الحيوانيـة ضراً أو نفعاً وكذلك معرفة حفظ الصحة
وعودها باستعمال المؤثرات الخارجة وهذا كله هو الذى يبحث
عنه علم الطب وهذه الاوصاف وان كانت عامة فى الحيوانات الا
أن يشاهد فى اعضاء الموجودات ووظائفها اختلافات عديدة
وتفاوت على درجات من المهم معرفتها وكما ان فى ذلك اختلافات
كذلك فى الشكل الظاهر أعنى الهيئة التى بها تعرف بنية الحيوانات
اختلاف كثير فمن الحيوانات ما شكله كروى ونقطى وذلك
كالحيوانات البسيطة أعنى الواحدة العنصر ومنها ما شكله خيطى
ومنها ماهو مبطط كالغشاء الصغير وذلك كالحيوان المعروف
بالخواتمى ومنها ماهو كالحيوانات النقطية السابقة الا انه ليس له
شـكل ثابت لان شـكله يتغير فى كل لحظة تغيراً عجيباً وهى
الحيوانات المسماة بكثيرة الشكل وهذه الاشكال لا تختص بأبسط
الحيوانات بل قد توجد فى بعض أنواع ارفع درجـة منها وفى
بعض أجزاء من حيوانات أخر وكذا يقال فى الشكل النجمى
والشعاعى فانه وان كان خاصاً ببعض رتب الحيوانات الا انه قد
يوجد فى أجزاء مختلفة من الحيوانات وأول نوع يشاهد فى الشكل
الشعاعى هو نوع الحيوانات العجلية والبوليبوس والقنافذ البحرية
ولا يكون قاصراً على ظاهرها الذى يشبه زهرا مشمع الوريقات
أو نجماً بل جميع أجزائها تكون موضوعة حول محور قد يكون
كثير الاشعة وقد يكون قليلها وفى بعضها يكون المحور طويلا

فيصير الشكل الشعاعي على هيئة اسطوانية فاذا أريد الانتقال
من الشكل الشعاعى الى الشكل المنتظم والهيئـة المفصلية يشاهد
ذلك فى الحيوانات الاسطوانية والديدان المعوية والحيوانات
الخاتمية فاذا أريد الانتقال منه الى الشكل المنتظم بدون مفاصل
يشاهد ذلك فى الحيوانات الغذائية وقد يكون الشكل المنتظم
غير تام في بعض الحيوانات لان الجسم به يكون منقسما الى
جزئين جانبيين أي نصفين متشابهين الا أن هذا الشكل لايكون
مطردا فى جميعها بل ينقسم فى بعضها الى شكلين مختلفين أولهما
ما يشاهد فى الحيوانات الرخوة فان جسمها غيرمنقسم الى دوائر
وارجل مفصلية لها وكذلك لا توجد فيها مفاصل أصلا بخلاف
غـيرها من الحيوانات المنتظمة فان جسمها منقسم الى دوائر
كالخواتم ثم يتحرك بعضها فوق بعض ومنها مالها أطراف تكون
أطرافه منقسمة الى أجزاء كثيرة أي الى مفاصل كثيرة وهـذه
الهيئة المفصلية كما توجد فىالحيوانات الخيطية الارجل توجدأيضا
فى الحيوانات الرخوة وتكون على هيئـة رسم فى الحيوانات
الاسطوانية التى هى كالديدانالا أنا كثر وجودها فىالحيوانات
الخاتمية والحشرات القشرية والمفصليةوتوجد أيضا فىالحيوانات
العضبية والفقرية ولذلك قد تنحصر الاشكال الحيوانية التى من
الشكل الكروى والخيطى والشعاعى المنتظم والمستطيل والمفصل
وغيره تحت هذه الانواع وقد يختلف الشكل الظاهر اختلافات

أخر منها أن يكون الجسم منقسما الى جذوع وهو الجزء المركزى المحتوى على الاعضاء المهمة للحياة وهي الاحشاء وعلى زوائد وهي الاجزاء المعدة للحركة والاحساس ثم ان الجذع ينقسم الى أطراف وهى الرأس والذنب والى متوسط وهو ما كان بينهما فأما الرأس فيحتوى على الفم وعلى الانتفاخ العصبي الرئيسى وهو المخ وعلى اعضاء الحواس الرئيسية

وأما الجزء المتوسط فيحتوى على الصدر ويكون فى الحيوانات المفصلية حاملا للاطراف العلوية وهو فى الحيوانات يحتوى على القلب والرئتين وعلى البطن وهو يحتوي على الاعضاء الرئيسية للهضم والتناسل لكن هذه الاجزاء لاتوجد فى جميع الحيوانات على حالة واحدة بل فيها اختلاف كثير فان الجذع لايوجد منه الا الجزء المتوسط فى الحيوانات الشماعية والرخوة والتى لا رأس لها وكذلك الديدان المعوية والحيوانات الخواتمية وهذا الجزء يكون متكونا من تجويف واحد يحتوى على جميع ما ذكرناه من الاعضاء ويكون فى الحيوانات الرخوة الرأسية متميزا وكذلك فى الحشرات والحيوانات القشرية والعنكبوتية بل هذه تزيد على غيرها بالصدر لكن الصدر المذكور قد يكون ممتازا عن الرأس والبطن وقد يكون مختلطا بأحدهما أو بهما معاً لكن الرأس فى الحيوانات الفقرية يكون متميزاً دائماً خلافا للصدر فانه قد يكون مختلطا مع البطن ويوجد فى زوائد بعض

الحيوانات الفقرية اختلاف كثير فمنها ما تكون زوائده صغيرة جداً وتسمى رمشاً أو هدبا وبعض أفراد الحيوانات الشعاعية يكون فيه الفم محاطا بزوائد تسمى الجساسات وتكون منوطة بالحس والحركة وكذلك فى بعض الحيوانات الرخوة التى لجساساتها احساس وبعض تولدات لحمية تسمى أيدى وأرجلا وظيفتها الحركة وقد توجد الزوائد المذكورة فى رؤوس الحيوانات القشرية والحشرات كقرون خيطية مفصلية مختلفة الشكل والظاهر انها مساسات ومثلها في ذلك قرون الحيوانات العنكبوتية والزوائد الجانبية المزدوجة اعضاء معدة للحركة فان كانت مفصلية سميت أطرافا وتكون فى الحيوانات الحواتمية كالرسم واكثر وجودها فى الحيوانات المسماة بأنفية الارجل والعرب تسميها — أم اربعة واربعين رجلا — ويختلف عددها في الحيوانات القشرية فتكون ثمانية فى العناكب وستا فى الحشرات التى لاغلبها جناحان أو اربعة واربعة فى الحيوانات الفقرية —

وكما أن الحيوانات اختلفت فى الشكل الظاهر على وجه ما فصلنا كذلك اختلفت فى التغذية فالتغذية تكون فى أبسط الحيوانات كالنقطية من الامتصاص أو التشرب الظاهرى بان تنفذ مادته الى جميع أجزاء الحيوان ثم يتحيون بعضها وينفرز البعض الآخر وهذا مايحصل فى الديدان المعوية وأما الحيوانات التى يكون تركيبها أعلى درجة مما ذكر فيكون فيها تجويف

معوى فى باطن الجسم ومتى كان كذلك كان الامتصاص بواسطة
سطحى الجسم الظاهر والباطن لاسيما الثانى وهـذا التجويف
يكون بسيطا فى بعض أفراد البوليبوس فان ارتقى الى ماهو
أعلى درجة منه يشاهد التجويف المذكور كانه كيس غشائى
يتميز عن كتلة الجسم وهذا الكيس يكون من غشاء أو جلد
باطنى يشبه الجلد الظاهر وأول ما يشاهـد فيـه ذلك هو
البوليبوس وبعض الديدان المعوية وفي باقى حيوانات هـذه
الانواع يكون التجويف المعوى ذا زوائد متمددة فى كتلة الجسم
تتوزع فيها مادة التغذية وبعض الابخرة البحرية والديدان المعوية
لاتوجد له معدة بل توجـد له زوائد متفرقة فتفتح فى السطح
الظاهر للجسم وفي جميـع ماتقدم من الهيئات للتجويف المعوى
المذكور ليس هو الا كيساً بسيطا مستطيلا وله فوهة واحـدة
ويوجد فى كثير من القنافذ البحرية والديدان المعوية قناة معوية
متميزة وفم ومخرج وذلك يشاهد فى كل حيوان يكون أعلى
درجة مما ذكر وتكون القناة المذكورة فى الجسم سواء كانت
واسعة أو ضيقة وتوجد ايضا فى الحيوانات الطويلة الاسطوانية
الجسم لـكن فى أفواهها اختلاف كثير أوضحها أن يكون فم
الحيوان بسيط الفوهة أو على فوهته عضل أو أجزاء جامدة لا
وظيفة لها الا الامتصاص وقد يكون على الفوهة عضل وأجزاء
جامدة تنفع لتقطيع الاغذية

اما وظيفة التناسل الذى هو تولد حيوان شبيه بالذى نشأ عنه فهى وظيفة عامة بين جميع الاجسام الآلية الحية لكن تختلف أعضاؤها وظواهرها باختلاف أنواع الحيوانات ففى بسيط الحيوانات لا يكون لها عضو مخصوص لما ان الحيوان بسيط التركيب لكن يكون تناسله بواسطة تجزئه الى قطع فيكون فى كل قطعة منها خاصية أصلها وهذا هو المسمى تناسل التجزئ وأكثر حصوله في الحيوانات النقطية وقد يحصل فى غيرها الا أنه يكون عارضياً وبعض الحيوانات التى تكون من هذا القبيل يشاهد فى جسمه كرات وجزئيات يظهر المتأمل ان التناسل يكون بها وهذا هو أدنى درجة التناسل ويسمى بالتناسل البرعومى فان ارتقينا الى ما هو أعلى درجة منه نشاهد ان التناسل برعومي حقيقة وهو أن ينمو على السطح الظاهر من الجسم برعوم أو أكثر ثم ينفصل ويستحيل الى متولد جديد وقد لا ينفصل بل يبقى ملتصقاً بأصله على هيئة فرع ونوع هذا المتولد مختص بالبوليبوس ويوجد ايضا تناسل برعومى باطنى بمعنى ان المولود ينفصل حياً كانه فقس وأعضاء تناسل هذا النوع مكون من تجاويف ممتدة فى كتلة الجسم وتنمو فى باطنها براعيم أو بذور ثم تنفصل من نفسها وتخرج من قناة متطرفة بالظاهر وأكثر حصول هذه الكيفية فى الحيوانات الابخرية لان لامسها يحس باللدغ كالذى يحس به لامس الابخرة وتخالفها فى ذلك الحيوانات التى لا رؤوس

لها وبعض الحيوانات الرخوة التى أرجلها محاذية لمعدتها بأن لها
مبيضاً حقيقياً وتلك لا يوجـد لها أعضاء تناسـل حقيقة فاذا
ارتقينا لما هو أعلى من ذلك نشاهد للحيوانات أعضاء تذكير
وأعضاء تأنيث بها يكون التناسـل لانه بتساندها تدب الحياة فى
الجراثيم وحينئـذ فأعضاء تأنيثها كتلة مكونة من جراثيم أى
مبيض وقناة تمر منها الجراثيم الى الخارج بعد انفصالها ويوجد
فى كثير منها تجويف تمكث فيه الجرثومة مدة طويلة أو قصيرة
فتنمو فيه وهـذا التجويف هو الرحم والفوهة التى يخرج منها
المولود بعد تكوينه وكمال نموه هى فوهة الفرج

وأما أعضاء التـذكير فهى غدد تسمى بالخصيتين ومنفعتها
افراز المنى الذى به يحصل التوالد ففى الحالة التى يلزم فيها دخول
المنى فى باطن رحم الانثى يكون للذكر قضيب ويلزم لتناسـل
هـذا النوع دخول القضيب فى الفرج وأول نوع يشاهد فيـه
رسم هـذه الهيئة هو الديدان المعوية لكن من حيث انه ليس
لها أعضاء دورة يكون مبيض اناثهـا وخصيتا ذكورها مكونة
من أوعيـة مفرزة سائبـة وفى كثير من الحيوانات الرخوة
والمفصلية والخواتمية تكون أعضاء التناسل على نوعين وفى التى لها
أعضاء دورة يكون المبيض والخصيتان متكونة من كتل غددية
لكن من هذه الحيوانات ما يكون خنثى مشكلا أى له أعضاء
تذكير وأعضاء تأنيث الا أن حالة اشكاله تكون غير كافيـة لانه

يلزم لتوليد غيره عنه اجتماعه بمثله كما هي حالة بعض الحيوانات الحواتمية والرخوة فاذا ارتقينا الى ماهو أعلى رتبة فى البنية نرى ان أعضاء التناسل منفصلة على فردين مختلفين ومن ذلك يكون التزاوج وهذه حالة بعض الديدان المعوية وكثير من الحيوانات الرخوة والحشرات والحيوانات القشرية والعنكبوتيـة وجميع الحيوانات الفقرية الى آخر ما أطال به صاحب كشف الاسرار النورانية القرآنية فى تفسير هذه الآية وبيان مادلت عليه وأخذ منها مما يتعلق بالحيوانات وذلك مأخوذ مما أشارت له الآية من اختلاف الدواب والحيوانات فى كيفية المشي ومن قوله تعالى عقب ذلك يخلق الله مايشاء فان ماذكرفيه تنبيه على ان الحيوانات كما اتحدت فى أنها مخلوقة من مادة واحدة هى الماء الممزوج بالطين واختلفت فى كيفية المشى كذلك هى مع اتحادها فى ذلك اختلفت فى أمور أخر واتفقت فى أمور فلذلك رجع العلماء الى الحيوانات فبحثوا فيهـا حتى وقفوا على ما اتفقت فيـه وما اختلفت فيه وعلموا ان هذا الاتحاد وهذا الاختـلاف يدلان دلالة واضحة على أن هـذه الحيوانات صانعاً وخالقاً مختارا وعليما حكيما

« الارض والسموات وما بينهما »

قال تعالى مخاطباً لنبيـه صلى الله عليـه وسلم ( قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك

رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم)

والمراد بالايام فى هذه الآية مقادير معلومة فأشار بقوله خلق الارض فى يومين وقوله وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام الى أن المدة التى خلق الله فيها الارض وقدر فيها أقواتها أربعة أيام فالايام الاربعة المذكورة ثانياً كانت كذلك أربعة بضم اليومين اللذين خلق الله فيهما الارض فكان المجموع أربعة أيام وتلك الايام الاربعة أشير بها الى المقادير الاربعة التى أولها المدة التى خلقت فيها الارض سائلة وتحولت من السيولة الي الجمود وثانيها المدة التى تحولت فيها أيضاً من الجمود الي التحجر ثالثها مدة تركيبها رابعها مدة خلق ما عليها وما فيها من حيوان ونبات ومعدن وكذا يقال فى قوله تعالى ( فقضاهن سبع سموات فى يومين) فالمراد منهما أيضاً قدران أولهما المقدار الذى خلق فيه مادة السماء وبناها طباقاً سبع سموات ثانيهما المقدار الذى فيه رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فخلق كل ما فيها من كواكب وغير ذلك ولذلك قال فى آية أخرى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض

بعـد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها
متاعاً لكم ولانعامكم ) فقوله بناها جملة وقعت بياناً لكيفية خلق
السماء وقوله رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها
جملة وقعت بياناً للبناء فبين أولا أن الخلق هو بناء فهى طبقات
وبين أن هذا البناء هو رفع السمك والعلو الزائد وخلق ما فيها
من الشمس والقمر وسائر الكواكب لان اغطاش الليـل أى
جعله مظلماً انما يكون بغيبة الشمس تحت الارض وإخراج الضحى
الذى هو النهار انمـا هو بشروقها وظهورها على وجه الارض
فالشمس على الدوام تشرق على وجه الارض فيكون النهار وتغرب
عن الوجه الآخر المقابل لما أشرقت عليه فيملأ ظلها جو ذلك
الوجه الذى غربت عنه وذلك هو الليل وهذا دأبها دائماً أبداً
ولذلك قال تعالى ( إن فى خلق السموات والارض واختـلاف
الليل والنهار لآيات لاولى الالباب) وقوله ( والارض بعد ذلك
دحاها ) الى آخر الآية يدل على أن دحو الارض بعد خلق السموات
وما فيها من شمس وقمر وكواكب بأن أخرج منها ماءها وفجر
منها عيوناً وأجرى فيها أنهاراً وأخرج منها مرعاها أى ما يقتات
به الانسان والحيوانات من النبات وأرسى الجبـال لكى يمنع
الزلازل فيمكن الانتفاع بالارض ولكى تكون الجبال بالنظر
الى الهواء كالجسور والمسنات بالنسبة للترع والجداول فان الهواء
هو بحر الجو الذى يملؤه كما أن المـاء هو بحر الارض فكما أن

الماء اذا جرى في الترع لا يصل الى الجهات المقصود ريها إلا
بواسطة الجسور التي تحفظه عن أن يميل في أثناء جريه الى جهات
أخرى كذلك الجداول اذا جرى فيها الماء لا يصل الى الاماكن
التي يقصد سقيها إلا بواسطة المسنات كذلك الجبال بما فيها من
الطرق الواسعة التي تكون بين جبلين تحفظ الهواء الذي يمر بها
ويسوق السحاب الى الارض الجرز المحتاجة الى الماء فلا يميل
الهواء ولا السحاب في أثناء السير الى جهات أخري ولذلك قال
تعالى في سورة الانبياء ( وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم
وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) والفجاج السبل هي الطرق
الواسعة يكتنفها جبلان فأشارت الآية الى بعض فوائد خلق
الجبال وهو منع الميد والزلزال عن الارض وجعل فيها فجاجاً
سبلا أي طرقاً واسعة يمر منها الهواء حيث يسوق السحاب الى
الارض الجرز وكذلك يمر منها السابلة والمارة من الناس ومن
الدواب ومن هذا الذي قلناه يعلم أن الارض خلقت أولا ثم
السماء وما فيها من شمس وقمر وكواكب ثم دحيت الارض بأن
أخرج منها ماءها ومرعاها وأرسيت الجبال كل ذلك لاجل
متاعنا ومتاع أنعامنا ومنافعنا ومصالحنا حسبما أراد الله وقدر
وكانت الارض وقت خلقها متخلخلة منتفشة فاجتمعت وتماسكت
وانبسطت ليكوّن الله عليها الجبال ويفجر فيها المياه ويخرج
منها النباتات كما قال الله تعالى (والارض وما طحاها) قال الليث

الطحو الدحو وهو البسط وابدال الطاء من الدال جائز فأشارت
هـذه الآية الى أن جميع المياه المذبة التى فى باطن الارض
وجوف الجبال والصـخور انمـا هى من المطر الذى ينزل من
السحاب المكوّن من الابخرة التى تتصاعد من البحار والادخنة
التى تتصاعد من الصحارى والبرارى وما أشـبه ذلك بواسطة
مطارح أشعة الشمس والقمر وسـائر الـكواكب فيتـكون من
اجتماعهما ذلك السحاب وما يتبعه من الصواعق والبروق والرعود
فالمعنى أن الله تعالى وسع الارض فجعلها لنا فراشاً ومهداً وذلولا
كما نطقت بذلك آيات أخرى وذلك بأن جعلها معدة وممهـدة
ومذللة لنا ولمنافعنا ومصالحنا بأن جعلها ذات تربة خصبة وأنزل
عليها الماء فاهتزت (وتشققت) وربت وأنبتت من كل زوج بهيج
قال تعالى ( فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا
الارض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا وزيتوناً ونخلاوحدائق
غلبا وفاكهة وأبا متاعاً لـكم ولانعامكم ) يعنى فلينظر الانسان الى
مطعومه بجميع أنواعه ليعلم انا في مبدأ تـكوينه صببنا الماء على
الارض صـباً متواتراً ثم كانت الارض تشقق ويخرج المـاء من
باطنها ومن الصـخور والجبال عيوناً وأنهاراً فأنبتنا فيها حباً
أى نباتاً ينمو الى أن يتـكامل نموه فينعقد حباً وعنباً وهو معروف
وقضباً أى فصفصة رطبـة يتكرر قطعها بكثرة وزيتوناً ونخلا
وهما معروفان وحدائق غلبا رياضاً عظاماً وفاكهة هى الثمار كلها فهو

تعميم بعد تخصيص. وأبا كلأ ومرعى كل ذلك أنبته الله لاجل متاعنا ومتاع أنعامنا كما نشاهد ذلك قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب) وقال تعالى (والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع) أي السماء ذات المطر الذى يرجع المرة بعد المرة فسمى رجعا لانه يرجع المرة بعد المرة كالذباب سمى كذلك لانه كلما ذب عاد والارض ذات الصدع أى ذات الشق فالارض تنشق وتنثنى بالصخور وظهور الجبال وذلك لان الارض حين تنشق تنفذ من الشقوق الصخور وتتكوّن عليها الجبال مخافة أن تميد بما عليها من الحيوانات وغيرها وتضطرب فيختل النظام ويقل النفع فالميد هو الزلزال وخلق الله الجبال على الارض لترسو وذلك أن الارض قبل تكون الجبال كانت دئماً تميد وترتعش كالمحموم فلما خلق الله الجبال شيئاً فشيئاً قل الميد والزلزال لان القشرة من كرة الارض أخذت فى الثخن عدة قرون من ابتداء خلقها بسبب تجمد المادة السائلة التى تحتها بالتبريد

والجزء الجامد من الكرة الارضية كان قليل القوام لا يقاوم ضغط الغازات ولا ضغط المياه السائلة التى كانت محيطة بها وضاغطة لها بقشرتها المرنة فحصل تمزق فى سطح الارض في جهات كثيرة فتكونت جبال ارفعت قاع البحر وكانت مكونة من صخور وفلذات

ومركبات معدنيـة مختلفة ونفذ من باطن الارض أيضاً سيول
من مياه في حالة الغليان فلما أتم الله تركيب الجبال واتساع الارض
قل الميد والزلزال ماأمكن لانه من المعلوم أن باطن الارض يتصاعد
معـه على الدوام أبخرة وغازات ومياه في حالة الغليان وحينئذ
يوجد في باطن الارض ينبوع عظيم لهذه الابخرة التي تميـل الى
الخروج الى ظاهر الارض كلما تكونت فمتى وجدت هذه الابخرة
منافذ في الصخور توصل الى سطح الارض نفذت منها بسهولة
فاذا لم تجد هذه المنافذ تراكمت في التجاويف الباطنية الارضية
وتضغط نفسها حتى تثقب القشرة الارضية المانعة من خروجها
أو ترفعها أو تمزقها ففي الحالة الاولى يتكون بركان وفي الثانية
يتكون جبل مختلف الارتفاع وفي الثالثة يحصل تمزق في باطن
الارض يحصل منه زلزلة تختلف الى شدته وضعفه باختلاف
درجة ذلك التمزق فأنت ترى أن الله جعل الجبال بركانيـة وغير
بركانية على الارض لتكون سبباً في تقليل الزلازل وهـذا هو
المراد بقوله تعالى ( وألقى في الارض رواسي أن تميد بهم ) هذا
ما قاله بعض المفسرين اذا قلنا إن معنى الميد في الآية هو الحركة
والاضطراب ويحتمل أن يكون المراد بالميـد اعطاء المائدة أو
الحركة مطلقاً وتكون هنا بمعني حركة النمو وخروج مافي الارض
من النبات وغـيره من القوة الى الفعل فلا تحتاج الآية الى أن
نقدر ما قدروه فيها من قولهم مخافة أو كراهة أو لئـلا بل

يكون قوله تعالى أن تميد مفعولا لاجله ثان والفعل مؤول بمصدر تقديره لاجل اعطاء المائدة أو لاجل حركة النمو

## ( دوران الارض وأخذه من القرآن )

قال تعالى ( الذى جعل لكم الارض فراشاً ) وقال ( أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ) وقال ( جعل لكم الارض مهداً ) وقال ( هو الذى جعل لكم الارض ذلولا) وقال فى سورة الانبياء ( كل فى فلك يسبحون) وفى سورة يس(وكل فى فلك يسبحون ) وقال ( وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ ) وكل هذه الآيات تدل بظاهرها على أن الارض متحركة ودائرة كما هو قول فيثاغورس قديماً وقول علماء الهيئة اليوم وذلك أنه ثبت بالمشاهدات الصحيحة أن الارض على شكل كرة مفرطحة نحو قطبيها منتفخة عند خط الاستواء وقد أطبق المحققون من المفسرين وجميع علماء الكلام وفلاسفة الاسلام على أن الارض كرة وعدوا انكار ذلك مكابرة فمن أقام الدليل على خلاف ذلك فقد اراد التشكيك فى اليقينيات وكابر نفسه وأنكر حسه فلا يعول عليه ولا يلتفت اليه فكان انتفاخها نحو خط الاستواء وتفرطحها نحو القطبين دليلا حسياً يدل على أن الارض كانت سائلة فى مبدأ خلقها وأنها متحركة بحركة رحوية ودائرة على محورها وذلك لان الكرة اذا كانت صلبة كالتى من العاج

مثلا لا يتغير شكلها ولو دارت على محورها قرونا كثيرة وأما
اذا كانت سائلة أو عجينية انتفخت نحو وسطها وتفرطحت نحو
قطبيها وبذلك جمدت قشرتها أيضا وبردت ولو كانت ساكنة
لبقيت جرما غازيا سائلا فلا تصلح لان تكون فراشا ولا مهداً
ولا ذلولا فثبت بذلك حركتها على محورها التى بها يتعاقب الليل
والنهار وأما حركتها حول الشمس فسببها ان الشمس أكبر جرما
من الارض أضعافا مضاعفة وكلما كان الجرم أكبر كان أكثر
وأقوى جاذبية من الاصغر فالشمس هى التي تجذب الارض اليها
من كل الجوانب لما تقرر على وجه ماذكر فى علم رفع الاثقال
بالتجربة العملية الصحيحة وبذلك تبين أن هذه الآيات
بظاهرها تدل على أن الارض ليست منقادة الى حركة رحوية
بها تدور على محورها ويتكون منها تعاقب الليل والنهار فقط
بل تحرك أيضاً حركة أخرى حول الشمس تتكون منها السنة
وفصولها وأما قوله تعالى (كل فى فلك يسبحون) فوجه دلالته
أن القاعدة العربية فى الضمير الذى يعود على المضاف اليه الذى
ناب عنه التنوين فى لفظ كل أنه يجوز فيه الافراد والتثنية ان
كان المرجع الحقيقى مثنى فالتثنية لمراعاة المعنى والافراد لمراعاة
اللفظ وقد جاء الضمير فى قوله (يسبحون) جمعاً فكان مرجعه
جمعاً وعلى هذا اتفق المفسرون غير أنهم أولوا ذلك بتأويل شتى
مادعاهم لارتكابها الا اعتقاد ماقاله البطليموسية من اليونان من

أن الارض ساكنة مع أنه لم يقم دليل على سكون الارض بل
الدليل قائم على دورانها فلا داعى للتأويل بل يجب أن تبقى
الآيتان على ظاهرهما ويعود الضمير على الاجرام الثلاثة التى هى
الارض . والشمس. والقمر . وممن استدل على دوران الارض
فى تفسيره بهاتين الآيتين وبقوله تعالى ( الذى جعل لكم الارض
فراشا ) ونظائرها من الآيات صاحب كشف الاسرار النورانية
القرآنية وأما قوله تعالى ( وترى الجبال تحسبها جامدة ) الآية
فوجه دلالتها على دوران الارض أن معناها انا نرى الجبال نظنها
بحسب ما يتراءى لنا ساكنة وهى فى الواقع ونفس الامر تمر
مر السحاب وتسير سيرا حثيثاً وما ذلك الا لان الارض متحركة
بحركة سريعة جداً والجبال تسير وتتحرك تبعاً لها لانه لا جائز
أن تكون الجبال متحركة هذه الحركة وحدها والارض ساكنة
لانه لو كان الامر كذلك لانفصلت الجبال عن الارض وهو
خلاف المشاهد فتبين أن حركتها انما هى بالتبعية لحركة الارض .
ولا جائز أن يكون ما نراه على الوجه الذى جاءت به الآية
وقت النفخة الاولى أو النفخة الثانية كما قيل بذلك لانه فى كل
من الوقتين لا يكون هناك بقاء ولا وجود للجبال على الارض
على الوجه الذى يلائمه قوله تعالى فى الآية ( صنع الله الذى أتقن
كل شئ ) لان يوم النفختين هو اليوم الذى ترجف فيه الجبال .
وتكون كثيباً مهيلا وهو اليوم الذى ينسف الله فيه الجبال .

نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا هو اليوم الذى تكون فيه الجبال كالعهن المنفوش والناس كالفراش المبثوث الى غير ذلك من الاحوال والاهوال التى لا تناسب أن يقال ويخاطب كل من يصح منه الرؤية ( وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ ) لان مثل هذا القول انما يقال لحض الناس المخاطبين على النظر فى ذلك الصنع المتقن والتفكر فيما اشتمل عليه من الحكم ليزدادوا ايمانا ويقينا وليس يوم النفختين صالحا لمثل هذا اذا علمت كل ماقلناه فى خلق السموات والارض تعلم أن العاقل المنصف اذا نظر فى هذه اللطائف التى اشتملت عليها تلك الآيات القرآنية وما دلت عليه من تدبير الصانع الحكيم نظر منصف مجرداً عن التعصب علم علماً يقيناً واعتقد اعتقاداً جازماً أن القرآن قد اشتمل على كثير من مباحث العلوم العمرانية والكونية وأن كل ما قيل غير ذلك فرية بلا مرية كيف وقد دلت على أن الله تعالى حكيم مقتدر عليم حيث جعل الارض كرة دائرة لتكون فراشا ومهدا وذلولا لنا

## ( بيان ان في السموات دواب كما ان في الارض دواب)

### ( وأخذ ذلك من القرآن )

قال تعالى ومن آياته ( خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة ) أما خلق السموات والارض فقد قدمنا مافيه الكفاية

لمثل هذا المقام وأما قوله وما بث فيهما من دابة فتقديره ومن
آياته خلق مابث فيهما من دابة والدابة هي ماله دبيب وحركة
فظاهر هذه الآية أن فى السموات دواب كما أن فى الارض دواب
وقد حكى الالوسى فى تفسيره هذه الآية أقوالا فى معنى الدابة
وقال ان هذه الاقوال اضطر قائلوها الي التأويل فى مسماها
والتجوز فى لفظها ثم قال ان الاحتياج الى ذلك عدول عن الظاهر
فلا يعدل عنه الا اذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل بل
الدليل قام على وجود الدواب فى السماء كما هى موجودة فى الارض اه
وكذلك رجح الزمخشرى فى كشافه أن فى السماء دواب من ملائكة
وحيوان على الوجه الذى علم الله تعالى ومما لا شبهة فيه أن المراد
بالارض فى الآية الارض التى نحن عليها كما أن المراد من
السموات ما نشاهده فوقها من الكواكب ومداراتها وما منه
مداراتها من باقي سمك السموات واذا علم ذلك فى عالمنا ونظام
شمسنا علم مثله فى سائر العوالم ونظام الشموس الاخرى التى
اكتشفت الآن فيكون فى سمواتها دوابها وفي أراضيها دوابها
على الوجه الذى يعلمه سبحانه فانت ترى أن القرآن دل على وجود
دواب في السموات وهو ما طال فيه بحث علماء الهيئة ولا يزالون
يبحثون فكيف لايكون القرآن ينبوع العلوم بجميع أنواعها

## دلالة القرآن على تعدد الشموس والاقمار

### تعدد الشموس

قال الله تعالى « تبارك الذي جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا »

الظاهر أن المراد بالبروج البروج المعروفة عند علماء الهيئة لانها كمنازل القمر كانت معلومة عند العرب من قبل نزول القرآن ووقت نزوله ولفظ البروج فى مثل هذا التركيب لاينصرف الا للحقيقة العرفية التى يعرفها المخاطبون وقد أخرج ذلك الخطيب أيضا فى كتاب النجوم عن ابن عباس وهى عندهم عبارة عن أقسام الفلك الاثني عشر التى قسموه اليها فاعتبروا كل قسم منها ثلاثين درجة وسموها باسماء صور الكواكب التى حاذتها وقت القسمة فسموا كل قسم باسم الصورة التى حاذاها وقت ذلك والضمير فى قوله وجعل فيها سراجاً يرجع إما الى السماء أو الى البروج قال الالوسى السراج هو الشمس لقوله تعالى فى آية أخرى وجعل الشمس سراجاً وقرأ بعض القراء سرجاً بضم السين والراء وقرأ آخرون بضم السين وسكون الراء وكلاهما جمع سراج قيل إن الجمع للتعظيم فان الشمس لعظمها وكمال اضاءتها كانها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الايام وقال بعض الاجلة الجمع على ظاهره والمراد منها الشمس والكواكب الكبار ومنهم من فسره بالكواكب الكبار اه ولا يخفى أن القولين الاخيرين متحدان لان الكواكب

الكبار يدخل فيها الشمس بلا شك لانها منها . وأقول ان أهل
الهيئة من قديم الزمان رصدوا النجوم الثوابت كما رصدوا
شمسنا وقمرنا وسائر السيارات ولكنهم فى الاعصر الماضية لم
يعرفوا من النجوم الثوابت الا القليل لقصر وسائط الرصد وبعد
النجوم . وأما الآن فقد رصدوها وعلموا منها ما لم يعلمه
الاقدمون فقد ثبت بالادلة الواضحة أن مايرى منها بالعين المجردة
دفعة واحدة فوق الارض فى ساعة مفروضة من القدر الاول
لغاية السادس ثلاثة آلاف كوكب وأن ما رؤي بواسطة النظارات
المقوية للنظر يزيد عن مائتى مليون كوكب وقد اكتشفوا فى
المجرة وحدها وهى المسماة عند العامة بالطريق التبانى ثمانية
عشر الف كوكب وكان الاقدمون يعتقدون انها نجوم صغيرة

وقد ثبت أن كل هذه النجوم الثوابت شموس وأن كل نجم
منها نراه فى قبة السماء في ليل صاف هو شمس نورها ذاتى يضيء على
عوالم فى نظاماتها كما تضيء شمسنا على العوالم فى نظاماتها وتلك
النجوم الدرارى تمتاز بالعين المجردة عن السيارات التى هى القمر
والزهرة وعطارد والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون
بشكل نورها لان نور السيارات ثابت أما هذه النجوم الدرارى
فدرهرهة كانها تقدح شرارات وقد اعتنى علماء الهيئة اليوم اعتناء
تاماً باستعلام اختلاف سنوى للثوابت وصنعوا الآن مقاييس
لقياس الزوايا الصغار وقد بلغت مهارة الصناع الى أن صنعوا

الآن مقاييس تقيس جزءا صغيرا من ثانية واحدة

وتبين أن من هذه الشموس ما هو أكبر من شمسنا ومن المحال أن يجعلها الله عبثاً بحيث لا يكون لها عوالم تضيء عليها في نظاماتها كما أن شمسنا كذلك ومن هذا يتبين أن الشمس التي هي بحسب مفهومها نوع لا تنحصر خارجاً في فرد واحد كما كان يقول المناطقة والفلاسفة الاقدمون واشتهر عندفلاسفةالاسلام وعلمائهموأخذوهقضية مسلمة وتعارفوه وحملوا آياتالقرآن عليه وقد تبين بطلانه الآن بما اكتشفه علماء الهيئة اليوموانالشموس تزيد عن مائتي مليون شمس لغاية الآن «ويخلق ما لا تعلمون» وما حمل المفسرين على ذلك الا اعتقادهم انه ليس في الوجود الا شمس واحدة هي شمسنا التي تضيء أرضنا وعدم وقوفهم على شموس أخرى مثل شمسنا وليس تفسير السراج في هذه الآية بما قاله أولئك المفسرون منقولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من اصحابهوانما المفسرونلما رأوا قوله تعالى وجعل الشمس سراجا وكان المراد بالسراج في هذه الآية هو شمسنا التيتضيء أرضنا ولم يقفوا الا عليها ورأوا كتبالمناطقة مطبقة كذلك على أن الشمس نوع انحصر خارجا في فرد واحد حملوا السراج فيهذهالآيةعلىذلكولو وقفوا علىانهنالكشموسا غير شمسنا لايحصى عددها وان ما اكتشفمنها لغايةالآنذلك المقدار الهائل لما وسعهم الا أن يعدلوا عن كل ما قالوه ويقولوا

بوجود تلك الشموس لانه الواقع الثابت بالمشاهدات بواسطة النظارات المقوية للبصر وحملوا الجمع فى الآية على ظاهره ومن ذلك تبين أن المتعين فى ذلك هو ما قاله بعض الاجلة ومن وافقه من أن المراد بالجمع الشمس والنجوم الكبار أو النجوم الكبار التى منها الشمس بالضرورة لان القرآن سماها سرجا فتدخل فى الجمع دخولا أوليا ويتعين أن المراد بالكواكب الكبار فى كلام بعض الاجلة ومن وافقه النجوم الكبار التى يصح أن يطلق عليها انها سرج وهى لا تكون كذلك الا اذا كان نورها ذاتيا كنور شمسنا وتضىء على عوالم فى نظامها كما تضىء شمسنا على عوالم فى نظامها فانها كلها انتظمت فى سلك لفظ واحد وهو لفظ السرج بصيغة الجمع وقد سماها الله جميعها سرجا فهى متماثلة فى ذلك وكل ما قيل فى شمسنا يقال فى كل واحدة منها — وأما قوله تعالى وجعل الشمس سراجا فالسراج فيه هو شمسنا فقط ولذلك لم ينقل فيه انه قرىء لفظ السراج الا بصيغة المفرد ولم ينقل فيه قراءة بصيغة الجمع بخلاف مافى هذه الآية فانه قرىء بصيغة المفرد وبصيغة الجمع فتعين حمل المفرد على معنى الجنس الصادق بما فوق الواحد حتى تتوافق القراءتان وانما كان كذلك للفرق بين مافى هذه الآية وبين الآية الاخرى التى جاء فيها وجعل الشمس سراجا لان هذه الآية الاخرى خاصة بالشمس التى هى فى السموات السبع وبالاقمار التى هى فيها وأما هذه الآية التى نحن بصددها فقد جاء

فيها السماء بلفظ الجنس الشامل للسموات السبع وكل السموات ما نعلمه منها ومالا نعلمه ولذلك قال تعالى ( تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ) والبروج المعروفة التى هى الظاهر من الآية ليس واحد منها فى السموات السبع كما هو المعروف عند علماء الهيئة قديماً وحديثاً وسيأتى تمام هذا فى الكلام على الآية الآتية فى تعدد الاقمار

## تعدد الاقمار

قال تعالى ( ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا ) أى جعل الشمس فيهن سراجا كما قاله المفسرون ومعنى كونها طباقاً أنهـا طبقات بعضها فوق بعض وهذا كما قال المفسرون هوالظاهر الذى تطابقت عليه الاحاديث الصحيحة الصريحة من أن السموات متعددة وأن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وأن سمك كل سماء كذلك ومعنى جعل القمر فيهن نوراً على ماقاله المفسرون أنهجعله منورا لوجه الارض فى ظلمة الليل وأن معني فيهن مع أنه فى واحدة منهن وهى السماء الدنيا هو كما يقال زيد فى بغداد اذا كان فى بقعة منها وأن المرجح له الايجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقا شفافة وأن معنى جعل الشمس سراجا أنه جعلها تزيل ظلمة الليل ويبصر أهل الدنيا وجه الارض ويشاهدون الآفاق ولعل في تشبيهها بالسراج القائم ضياؤه به لا بطريق

الانعكاس رمزاً الى أن ضياءها ذاتي ليس مستفاداً من كوكب آخر كما أن نور القمر ينعكس عليه من نور الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد وخسوفه بحيلولة الارض بينه وبينها اه ملخصاً من الالوسى

وأقول إن مما لا شبهة فيه أن هـذه الآية صريحة فى أن السموات متعددة كما ينطق به لفظ سبع الذى هو لفظ عدد وهو الظاهر من لفظ طباقا أيضاً وجاءت الاحاديث الصحيحة صريحة بذلك وبأن البعد بين كل سماء وسماء وسمك كل سماء هو ماسمعت وقد جاء فى الاحاديث الصحيحة أيضاً أن الارض بالنسبة للسماء التي فوقها كحلقة ملقاة فى فلاة وأن السماء الدنيا بالنسبة لما فوقها كحلقة ملقاة فى فلاة وهكذا كل سماء بالنسـبة لما فوقها وبهذا لا يمكن أن يكون نفس القمر فى كل واحدة من السموات السبع ولا يكون منيرا فى كل واحدة من السموات فليس هو في كل واحدة بذاته ولا بنوره مع أن قوله تعالى ( وجعل القمر فيهن نورا ) نص صريح فى أن القمر فيهن جميعاً لان ضمير فيهن يعود الى السموات التى ذكر عددها وهو سبع وان كان العدد لا مفهوم له ويجوز أن يكون عددها أكثر ولكن كلامنا الآن فى هذه السموات السبع لانها هي التى كانت معلومة للعرب المخاطبين وقت نزول الآية ومع تعددها وتباعد طباقها بعضها عن بعض بعدا شاسعاً وتفاوت النسب فى العظم لا يمكن لعاقل أن يقول أن القمر

الذى هو في السماء الدنيا هو فيهن جميعا لاستحالة أن يكون جرم واحد فى أكثر من مكان واحد ولا يمكن أن يصل نوره من السماء الدنيا الى مافوقه من سائر السموات لان القمر وسماءه بالنسبة الى السماء التى فوقه كحلقة ملقاة فى فلاة فما بالك بباقى السموات

فتعين أن تحمل الآية على ظاهرها وأن المراد بالقمر جنس القمر الصادق بالواحد والمتعدد وممن صرح بجواز حمل الآية على ذلك صاحب كشف الاسرار النورانية القرآنية فى تفسير هذه الآية وأما ماقالوه من أن معنى جعله فيهن مع أنه فى واحدة منهن هو كما يقال زيد في بغداد وهو فى بقعة منها الخ فهو تأويل لا داعى اليه الا عدم وقوفهم على وجود أقمار أخرى غير قمر أرضنا فضلا عن أنه تأويل غير صحيح للفرق الواضح بين الآية وبين قولنا زيد فى بغداد وهو فى بقعة منها لان هذا القول انما صح فى قولنا زيد فى بغداد اذا كان فى بقعة منها باعتبار أن بغداد بلد واحد أو اقليم واحد يسمى باسم واحد وله وحدة شخصية فهو نظير قولك جلست فى بيت فلان اذا كنت جالساً فى بقعة منه وليس ما فى هذه الآية من هذا القبيل لان السموات كما علمت طبقات متعددة متفاوتة فى البعد والعظم وكل واحدة منها مستقلة عن الاخرى ولها اسم مستقل ولا ملابسة بين سماء وسماء لا بالكلية ولا بالجزئية كما لا ملابسة بين القمر الذى فى سماء الدنيا وبين غيرها من السموات بالكلية ولا بالجزئية ولا بالحالية ولا

المحلية فما فى الآية من قبيل زيد فى مكة وبغداد مثلا أو من قبيل
زيد فى بيت خالد وبيت عمرو فان كان يصح أن يقال لمن فى مكة
أنه فى بغداد وبالعكس أو لمن هو فى بيت خالد هو فى بيت عمرو
وبالعكس لملابسة الكلية والجزئية أو لاى ملابسة أخرى يصح
أن يقال ان مافى سماء هو فى واحدة أخرى منها أو فى سائرها
بتلك الملابسة وهذا مما لا يقوله أحد أصلا وأمادعوى الترجيح
بالايجاز فهو دعوى ربما نافت الاعجاز لانه لا توجد نكتة بلاغية
تصحح اطلاق لفظ هو نص فى الكثرة والجماعة على واحد معين
منها بدون علاقة ولا قرينة بين المعنى الحقيقى وبين المعنى المراد
لاجل الايجاز بل الايجاز على هذا الوجه ايجاز مخل بافادة المراد
خصوصاً فى كلام من لا يعجزه شئ سبحانه وهو على كل شئ
قدير فكان فى قدرته أن يعبر بعبارة أخرى تفيد المقصود مع
الايجاز وبدون هذا التكلف الموجب للتأويل من غير داع اليه
وأما كون السموات طباقا شفافة فغاية ما يقتضيه أنها لا تحجب
ماوراءها واما أن القمر الذى يكون فى احداها يكون فى باقيها
أيضا أو ان نوره يصل الى باقيها أيضا فهذا لا يقتضيه كونها
شفافة ولا يشير اليه بحال من الاحوال خصوصا وأنهم صرحوا
بأن معنى جعله نورا انه ينير وجه أرضنا وأن نوره مستفاد من
نور الشمس وقال غير واحد من المفسرين كما نقله الالوسى أن
نور باقى الكواكب ما عدا الشمس مستفاد من الشمس أيضاً

فكيف يمكن أن يكون نور القمر المشرق على أرضنا واصلا الى مافوقه من السموات الاخرى وهى مثله تستمد نورها من نور الشمس أيضاً

فتمين ما قلناه من حمل الآية على ظاهرها وان الاقمار متعددة وبيان ذلك أن الذي قاله علماء الهيئة وثبت بالارصاد الصحيحة واكتشف بالنظارات المقوية للانظار هو أن القمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون كلها أجرام مظلمة كجرم ارضنا وانها جميعا تدور حول الشمس وتستمد نورها منها على مسافات مختلفة وبين هذه الاجرام تفاوت عظيم جرماً وكثافة وانها انقسمت الى قسمين سفلى وعلوى فالسفلى ثلاثة الارض والقمر وعدوهما واحداً لان القمر تابع للارض والثانى والثالث الزهرة وعطارد والعلوى الآن خمسة هى المريخ والمشترى وزحل وأرانوس ونبتون ولبعض هذه الاجرام أقمار تدور حولها وتدور معها حول الشمس فللأرض قمر واحد وللمشترى اربعة أقمار ولزحل ثمانية أقمار ولاورانوس اربعة أقمار على الراجح وقيل اكثر ولنبتون قمر واحد على الراجح وقيل اكثر فجملة الاقمار التى اكتشفت لغاية الآن بالنظارات المقوية للأبصار ثمانية عشر قمراً وكل هذه الاجرام وما يتبعها هى ما يسمى فى عرف علماء الهيئة اليوم بالنظام الشمسى وان الشمس فى هذا النظام الذى هو عالمنا شمس واحدة وان جميع هذه السيارات

وأقمارها تستمد أنوارها من الشمس فتشرق عليها الشمس نهاراً وتشرق عليها أقمارها ليلا كما تستمد ارضنا التي تقلنا وقمرها نورهما من الشمس وان فى كل واحد من هـذه السيارات دورة يومية ودورة سنوية فيدور كل واحد منها على محوره فتكون دورته اليومية ويدور حول الشمس فتكون دورته السنوية وان الفصول السنوية فى ارضنا وفى غـيرها من تلك الاجرام يتوقف تحققها على ميل فلك كل واحد منها على خطه الاستوائي

ومن هذا يعلم أن فى هذه الاجرام السماوية ليـلا ونهارا وظلمة وضياء وأن هـذه الشمس التى نراها هى السراج فى كل واحد منها فـكما انها تزيل ظلمة الليل فى ارضنا نهاراً ويشرق قمرها عليها وينيرها ليلا كذلك هذه الشمس بعينها هى التي تضيء وتزيل ظلمة الليل فى كل كوكب من هذه الكواكب نهاراً وقمره أو اقماره تشرق عليه وتنيره ليلا . ومن هذا يتضح لك أن الاقمار متعددة فى نظامنا هـذا لاحتياج الكواكب الى الاستنارة بها ليلا وان الشمس واحدة لتكون سراجا تستمد من نورها أنوار تلك الاجرام وأنوار اقمارها فلهذا قال تعالى فى مقام الـكلام على السموات السبع التى هى فى عالمنا ( وبنينا فوقـكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا ) وقال ( وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ) على معنى انه تعالى جعل جنس القمر الذى يصدق باكثر من واحد فيهن فجعل لـكل سماء قمراً أو اقمارا تنيرها وجعل الشمس

فيهن جميعاً سراجا تمدها وأقمارها بنورها فتضيء عليها نهارا وتنيرها أقمارها ليلا بنورها المستفاد من الشمس وقرىء قوله تعالى فى هاتين الآيتين سراجا بصيغة الافراد فقط ولم يقرأ بصيغة الجمع . قال الالوسى والمراد به أى بالسراج الوهاج الشمس والمشهور انه فى السماء الرابعة ولم نر فيه أثرا سوى مافى البحر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال الشمس فى السماء الرابعة الينا ظهرها ولهبها يضطرب علوا اه باختصار

وأما فى مقام الكلام على جنس السماء الصادق بالسموات السبع التي هى من عالمنا وبغيرها من السموات الاخرى التى هى عوالم أخرى قال تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا » فأشار بجعل البروج فيها أى في جنسها الى أن هناك كواكب أخرى غير الكواكب السيارة وتلك الكواكب هي البروج المعروفة عند علماء الهيئة كما تقدم . ومما لاشك فيه أن البروج المعروفة هى كواكب من جملة النجوم الثوابت التى ضوءها ذاتى لها فهى شموس وسرج وأشار بقوله وجعل فيها سراجا حيث قرىء بالافراد وبالجمع أيضا الى أن فى السماء كواكب أخرى هى سرج ومضيئة بذاتها وان هذه الكواكب الكبيرة هى شموس تضيء بضوئها الذاتى على عوالم نظاماتها فان من لوازم كونها سرجا أن تكون شموسا تضيء كل واحدة منها على عوالم نظامها كشمسنا والا كان خلقها سرجاً

عبثاً . فانظر الى دقائق القرآن حيث قال فى مقام الـكلام على السموات السبع وجعل القمر فيهن نورا للاشارة الى تعدد القمر وقال وجعل الشمس سراجا بصيغة الافراد فقط للاشارة الى أن الشمس واحدة فيها وقرىء بالجمع وبالمفرد الذى هو في معناه في مقام الـكلام على جنس السماء الصادق بالسموات السبع وبغيرها للاشارة الى تعدد الشموس

فأنت ترى ان القرآن اشار الى تعدد الاقمار وتعددالشموس وبطلان قول فلاسفة اليونان وغيرهم بان الشمس نوع انحصر فى فرد واحـد فى الخارج وان القمر نوع انحصر كذلك خارجاً فى فرد واحد وأشار بقوله وهاجاً الى بطلان قول أولئـك الفلاسفة أيضا ان الشمس لا حرارة بها خصوصاً على ماروى عن عبد اللهبن عمرو بن العاص وذلك قبل أن يخلق الله علماء الهيئةاليوم الذين اكتشفوا ذلك وقبل أن يكتشفوا تعدد الاقمار والشموس فهل بعد هـذا الذى ذكرناه وهو قليل من كثير يمكن لمتشدق أو متعصب أو ملحد أو معاند يقول ان الاسلام والمسلمين أعداء العلم وأن دين الاسلام هو دين التقهقر وأن الاديان لاتتفق مع العلم كلا بل ان دين الاسلام الذى مبناه هذا القرآن هو دين العلوم كلها ودين العمل

هذا الذي قلناه هو جوهر الدين الاسلامي وهو الذى تمسك به اسلافنا فـكانت كلمتهم العليا وسلطانهم فوق كل سلطان

( فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ) ( ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة إعملوا ماشئتم انه الله بما تعملون بصير )

ياليت قومى يعلمون ويعملون بعلوم القرآن ويتمسكون بدينهم دين الاسلام ويقومون بشعائره حق القيام ولا يتمسكون بأقوال فريق غلوا فى دعوى الفلسفة حتى صدقوهم فى كل ما يقولون بدون حجة ولا برهان حتى لو قالوا ان الارض غير الارض والسموات غير السموات والشمس غير الشمس وأنكروا الحقائق الثابتة بالعيان لصدقوهم مع أن ما يقوله هؤلاء ليس الا دعاوى كونيم ذباب أو كطنين باب أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

علوم الفلسفة

العلوم هى على ما قاله علماؤها أربعة أنواع رياضية ومنطقية وطبيعية والهية * أولها علم الرياضة وهو أربعة أقسام الاول علم «الارتماطيقى» وهو علم خواص العدد وما يطابقها من معانى الموجودات التى ذكرها فيثاغورس وغيره ويدخل فيه علم الوفق وعلم الحساب الهندى وعلم الحساب القبطى والزيجى وعلم عقد الاصابع *الثانى علم «الجومطريا» وهو علم الهندسة بالبراهين

المذكورة فى كتاب اقليدس وغيره من كتب الهندسة وبعضها علمية وبعضها عملية ويدخل فيه علم المساحة وعلم التكسير وعلم رفع الاثقال وعلم الحيل المائية والهوائية وعلم المناظر والحروب *الثالث علم الاسطرقوسيا وهو علم النجوم بالبراهين المذكورة فى كتاب المجسطى وغيره من كتب هذا الفن ويدخل فيه علم الهيئة السماوية والارضية وعلم الزيج وعلم أحكام النجوم وعلم التحويل *الرابع علم «الموسيقى» ويدخل فيه علم الايقاع والعروض الثانى من أنواع علم الفلسفة العلوم المنطقية وهى خمسة أقسام الاول «انولوطيقيا» وهو معرفة صناعة الشعر الثانى علم «الطوريقا» وهو معرفة صناعة الخطب الثالث (لوطيقا) وهو معرفة صناعة الجدل الرابع «الولوطيقى» وهو معرفة صناعة البرهان الخامس سوفسطيقا وهو معرفة المغالطة

الثالث من علوم الفلسفة العلوم الطبيعية وهى سبعة أقسام الاول علم المبادى العامة وهو معرفة خمسة أشياء لايخلو ولا ينفك عنها جسم من الاجسام وهى الهيولى والصورة بقسميها الجسمية والنوعية والزمان والمكان والحكمة ـ والثانى علم السماء والعالم وما يتعلق بذلك مما فيه ـ الثالث علم الكون والفساد ـ والرابع علم حوادث الجو ـ الخامس علم المعادن ويدخل فيه علم طبقات الارض ـ السادس علم النباتات ـ السابع علم الحيوان ويدخل فيه علم الطب وفروعه

الرابع من علوم الفلسفة العلوم الالهية وهى أشرف العلوم وأعلاها قدرا وهى خمسة أقسام الاول علم الواجب وصفاته الثانى علم الروحانيات وهو معرفة الجواهر البسيطة العقلية الفعالة وهى التى تسمى بلسان الشرع بالملائكة الموكلين من قبل الله تعالى بتدبير العوالم كلها وحفظ نظامها الثالث العلوم النفسانية وهى العلوم المتعلقة بالنفوس المتجسدة والارواح السارية فى الاجسام الفلكية والطبيعية من سموات وارضين والرابع علوم السياسات وهى خمسة أقسام اولها علم سياسة النبوة والرسالة الثانى علم سياسه الملك ويدخل فيه مايتعلق بعلم الفلاحة وسياسة الرعايا وهذا العلم هو أول ما يحتاج اليه فى مبدأ الامر لتأسيس المدن وعمارتها وعلم قود الجيوش ومكايد الحروب والسطيرة والبيزرة وآداب الملوك والرابع العلم المدنى كعلم سياسة العامة وعلم سياسة الخاصة المسماة بسياسة المنزل والخامس علم سياسة الذات وهو علم الاخلاق

هذه هى علوم الفلسفة التى على حسب اتقانها كلها أو بعضها تتفاوت درجات الفلاسفة فمن اتقنها كلها كافلاطون وارسطو ونحوهما من علماء اليونان وغيرهم وكالفارابى وابن سينا وغيرهما من فلاسفة الاسلام كان فيلسوفا كاملا وقد ألف ابن سينا كتابه الشفاء مشتملا على جميع هذه العلوم ومن لم يتقن الا بعضها كان فيلسوفا بقدر ما أتقن منها

فليخبرنا الذين سموا رينان فيلسوفاً عن مقدار ما أتقنه من هذه العلوم حتى نعرفه فيلسوفاً فيما أتقن فقط ولعل رينان لم يتقن من هذه العلوم الا القسم الخامس من علوم المنطق (المغالطة) وكيف ساغ لرينان وأمثاله الذين طعنوا على علوم ماوراء الطبيعة عموماً وعلى الاديان خصوصاً وهى أشرف علوم الفلسفة وأعلاها قدراً ومنها علم سياسة النبوة والرسالة الذى انبنت عليه الاديان والشرائع أن يطعنوا ويحكموا عليها بالبطلان وينكروها وهم يجهلونها جهلا تاماً والحكم على الشئ فرع عن تصوره فالحكم على هذه العلوم التى انبنى عليها هذه الاديان بما حكم به رينان وأمثاله انما يكون بعد الخوض فى علوم هذه الاديان والوقوف على حقائق العلوم التى اشتملت عليها الكتب الالهية وعلى الاخص علوم القرآن الذى لم يفرط فيه من شئ وهو تبيان لكل شئ وبدون ذلك يكون كل من رد على هذه الاديان أو عابها أو رد عليها أو يعيبها وهو بعيد عنها قد ركب فى رده متن عمياء وخبط خبط عشواء لعدم اطلاعه على ما انطوى عليه القرآن ونبهت عليه آياته من العلوم الكونية والعمرانية والسياسية بجميع أنواعها وتعويل بعض المسلمين على ما يقوله هؤلاء انما هو لجهلهم بذلك أيضاً فلذلك نقول لكافة المسلمين فى أقطار الارض عموماً وفى مصر خصوصاً

أما آن للمسلمين أن يفيقوا من سكرات الشهوات ويقوموا من تحت ردم الغفلات ويشتغلوا بعلوم القرآن ويعملوا بما يعلمون

من علومه معرضين عن وساوس الشياطين ومكايد الملحدين حتى تعود لهم سيرة أسلافهم الاولى ويسعدوا في الآخرة والاولى والله ولى التوفيق

## دلالة القرآن على مادة الفحم الحجرى

## وسائر ما يتبعه من المواد الملتهبة

قال تعالى ( هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعاً ) أى ان الله سبحانه خلق لمصلحتنا كل ما فى الارض ومن ذلك ما خلقه الله وامتن به علينا وجعله دليلا على البعث واحياء الموتى بعد الموت من شجرة النار حيث قال عز من قائل ( وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ) أى ان هذا الذى أنكر إحياء الله الموتى أورد لنا قصة عجيبة غريبة فى زعمه واستبعدها وعدها فيما يزعم من قبيل الامثال وأنكرها أشد الانكار وهى احياؤنا العظام بعد أن رمت وبليت وتفرقت ونسى اننا خلقناه على وجه هو نظير احيائنا تلك العظام التى رمت وتفرقت. وذلك أن هذا الانسان وغيره من بنى نوعه قد خلقوا من أجزاء كثيرة كانت مفرقة فى أماكن كثيرة جمعها الله تعالى وركبها وأحياها فقد خلق الانسان من سلالة من طين وهى مركبة من عدة أجزاء ثم جعل تلك السلالة نطفة وهى انما تتولد من الدم

بواسطة الخصيتين والدم انما يتولد من الكيلوس والكيلوس انما يتولد من الكيموس والكيموس انما يتولد من الاغذية نباتية كانت أو حيوانية وهـذه أيضا تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفوة الارض والماء فالانسان بالحقيقة متولد أولا من سلالة من طين ثم بعـد أن تتوارد على تلك السلالة أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً ونطفة ثم النطفة جعلت فى قرار مكين فجعلها فى اصلاب الآباء بان خلق الحوصلتين المنويتين ووضعهما فى الصلب خلف عنق المثانة ثم خلق النطفة علقة أى حول صفات النطفة وهى المنى السائل الى صفات العلقة فتشاهد في ازمنة مختلفة نقطة أصلية صـغيرة مظلمة فى وسط سائل شفاف تحتوى عليه البذرة وبعد أطوار وأدوار تمر على العلقة يخلق الله العلقة مضغة أى قطعة لحم وبعـد أدوار تمر على تلك المضغة يخلقها الله عظاما فتكون أولا أجساما غروية ثم غضروفية ثم عظاماً ثم يكسو العظام لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث يجعله حيوانا ناطقاً حياً مريداً قادراً سميعا بصيرا متكلماً متفكرا بالقوة بعد أن كان علقة ثم مضغة وهما فى ابتدائهما مكونتان كالذرة أو جرثومة موضوعة على حويصلة فبدل أن يقول هذا الجاحد اذا نظر وتفكر مم خلق فتبارك الله أحسن الخالقين . قال معانداً مستفهما استفهاما انكاريا ( من يحيي العظام وهي رميم ) أي بالية قد اكلتها الارض وتفرقت أجزاؤها

فقال الله سبحانه وتعالى لرسوله (قل) يا محمد رداً على قول هذا المنكر وتبكيتاً له بتذكيره مانسيه وغفل عنه فى خلقه الدال على حقيقة الحال (يحييها الذى انشأها اول مرة) أى فى المرة الاولى اذ انشأها وأحياها من أجزاء كلها متفرقة فى اماكن كثيرة ولا شك أن الاحياء بعد ذلك بجمع الاجزاء المتفرقة كما قال تعالى (حتى اذا مزقتم كل ممزق انكم اذاً لفى خلق جديد) أهون عند ذوى النظر من الانشاء والاحياء فى المرة الاولى فمن قدر على انشائها واحيائها فى المرة الاولى كان على جمع الاجزاء بعد التفرق واحيائها أقدر وكيف لا يكون كذلك (وهو بكل خلق عليم) أى عليم بكل مخلوق فهو يعلم كل جزء من جميع الاجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الاشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من جميع ما ذكر على النمط السابق مع اعادة القوى التى كانت فى تلك الاجزاء من قبل (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) أى كيف لا يكون قادراً على جمع العظام واحيائها وهو الذى خلق فى جميع الشجر الاخضر ناراً خصوصاً شجر المرخ والعفار فيتخذ من المرخ وهو ذكر الذنب الأعلى ومن العفار وهو أنثى الذنب السفلى ويسحق الاول على الثانى وهما خضراوان وأن يقطر منهما الماء فتنقدح النار باذن الله تعالى فالمرخ بمنزلة الذكر والعفار بمنزلة الانثى كما قاله الكشاف وغيره فاذا أنتم منه

توقدون ) أى فاذا انتم من ذلك الشجر توقدون النار لا تشكون فى انها نار حقيقة تخرج منه وليست نارا صورية كنار الحباحب فمن قدر على إحداث النار وايجادها من الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة للنار بكيفيتها فان الماء بارد رطب والنار حارة يابسة كان جل وعلا أقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضاً من قبل فيبس وبلى وهـذه النار يخلقها الله عند سحق احدى الشجرتين المذكورتين على الاخرى لا أن هناك نارا كانت كامنة تخرج بالسحق وقد خلق الله فيهما كما خلق فى كل الاشجار مادة صمغية ومادة شمعية فلذلك كانت كل الاشجار قابلة للاحتراق وصالحة لان تكون وقودا للنار وقال تعالى أيضا ( أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) هذا استفهام تقريرى لطلب اقرار المخاطبين واعترافهم بذلك لظهوره ووضوحه أى انه هو الذى انشأ الاشجار التى تصلح وقودا للنار بجعل أصول شعلها السارية بها المتولدة بخلقه تعالى منها تنتشر بها لاجل تغذيتها وتحليلها بقدرته تعالى ولو لم يخلق الله تعالى تلك الاشجار ولم يجعلها ذات شعل لم تصلح للنار لانضاج الاشياء ولم يسهل علينا ايقاد النار ولم يتيسر لنا ذلك فمن قدر على ايجاد هذه الدهنية التى هي أصل الشعاع قدر على احداث النار فى الشجر ومن قدر على احداث النار فى الشجر كان قادرا على احياء الموتى وقال تعالى فى آية أخرى لبيان مادة من مواد النار فذكر ما يتكون منه

الفحم الحجري وما يتبعه من الاشياء القابلة للالتهاب كالغاز ونحوه ( الذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ) قال ابن عباس المرعى هو الكلأ الاخضر والغثاء من النبـات ما حملته الميـاه وسيرته مع الزبد ورسب وانطم في الكدورات وقوله آحوى أى اسود أى أنه اكتسب لبعد الزمن الذى رسب وانطم فيه سوادا انتشر به مكتسبا من الارض ولا يعلم المدة التى يصير فيها الغثاء اسود الا الله تعالى ومن المقرر عند علماء طبقات الارض أنه يتكون على سطح الاراضى الغازية يوميا تجاويف منها وفى الاودية ذات الانحـدار القليـل وفى الاماكن المنخفضة ذات المستنقعات رسوبات من نبات متى تحللت يحصل منها جسم قابل للاحتراق ولا تتكون هـذه الرسوبات الا فى أحوال مخصوصة وأماكن مخصوصة فلا تتكون فى المياه الجـارية ولا فى البرك العميقة ولا فى المحال التى يجف ماؤها فى بعض الاحيان وانمـا تتكون فى المحال التى تبقى فيها المياه الراكدة على الدوام فى عمق قليل الغور وهذا الجسم يسمى عندهم بالتورب وتكونه ينشأ عن تراكم النباتات الخلوية المغمورة فى الماء على الدوام وهى تتكاثر بسرعة كانواع النباتات المائية وربما ساعدتها فى تحللها ويضاف اليها عدة نباتات أرضية جذبتها مياه الانهار ومما لا مجال للشك فيه ان الدسومات الفحمية التى توجد في باطن الارض تتكون من نباتات تراكمت على بعضها كالتورب ودليل ذلك البقايا التى

تكشف فيه وفي التورب بالمنظار المعظم وكذا السوق والاوراق العديدة التي توجد فى المواد الطينية التي تصاحبه وقد اتفقت اراء علماء طبقات الارض على هـذه المسألة وان اختلفوا فى كيفية التراكم والقول الذي صححوه ان أغلب هذه الرسوبات تتكون فى حفر بركية من أرض مكشوفة وهذا القول لاصعوبة فيـه لانه لايستدعى الا مايلزم من الزمن لتراكم المواد العضوية التي يتكون منها الفحم الحجرى والظاهر ان الزمن المذكور طويل جدا قال بعضهم في شأن مقدار الكربون الذى يتكون سنويا فى الغابات القديمة الى عصرنا أنه لا يتكون منه فى كل قرن الا طبقة واحدة خمية ثخنها واحد ونصف من مائة لكن لما كان الجو فى الزمن القديم قبل تكون الحيوانات مشحونا بأبخرة كان منه نبات قوى جدا وكان يتصاعد من باطن الارض كثير من حمض الكربونيك فكانت النباتات تثبت الكربونات في باطنها بسرعة وعلى كل حال فليس رسوبات الفحم الحجرى وحـدها هى التي تستدعى فى تكونها زمنا طويلا بل جميـع الرسوبات كذلك فالرسوبات الحجرية الجيرية القوقعية التي اكتسبت ثخنا عظيما جدا يستدعى تكونهـا قرونا عديدة ورأى من يشبه الرسوبات الفحمية بالتورب معضد ببقايا النباتات الخفية الزهر العديدة التي تكتشف بالمنظـار المعظم فى الفحم الحجري وفى التورب ويعضد هـذا الرأى أيضا بوجود الاشجار المنغرسة بجذورها

فى الارض الغازية وباوراقها المحفوظة فى الشست وبوجودها فى أحواض مختلفة الاتساع منفصلة عن بعضها فهذه الاحوال كلها تدل على وجود أماكن ذات مستنقعات متكونة فى حفر أرض مكشوفة وبها يبطل القول بان الاشجار حملتها مياه الانهـار أو مياه البحار الى آخر ما ذكره علماء طبقات الارض ممـا يتعلق بالفحم الحجرى وما يتعلق به ويتولد منه من المواد الملتهبة وغيرها ولا يخرج فى تـكونه عن الغثاء الا سود الذى جاء فى هذه الاية مشيرا به الى مادة كل ماذكروه على وجه الاجمال وبالجملة النار من النعمة الكبرى وهى من الاجسام السبعة التى يتعلق بها الكون والفساد وباقيها الهواء والماء والارض وهذه هى أمهات والحيوانات والنباتات والمعادن وهى المواليد وكما ان كل واحد من المواليد مركب من هيولى وصورة مقومة وصور متممة كذلك كل واحد من الامهات مركب من صورة مقومة وصور متممة والصورة المقومة هى التى ينعدم وجود الهيولى بانعدامها والصورة المتممة هى التى تبلغ الشيء الى أفضل حالاته التى يمكن البلوغ اليها واذا فارقت هيولاه لم ينعدم وجود الهيولى وكل صورة مقومة للذات يتلوها صور متممة وكل صورة فاعلة لاخرى تابعة لها يتلو بعضها بعضا كما يتلو أزواج العدد أفراده ويتلو أفراده أزواجه بالغـا مابلغ والصورة المقومة للنار هى حركة الغليان والصورة المتممة لها هى الحرارة ويتلوها اليبوسة ويتلو اليبوسة تماسك اجزائها

ومن الصور المتممة للنار اللطافة والنور ويتلوه الأشراق وهي
بكل صورة تفعل باذن الله تعالى فعلا غير الذى تفعله بالاخرى
فبالحركة تفلى الاجسام وبالحرارة تسخن وباليبوسة تنشف
وباللطافة تنفذ فى الاجسام وبالنور والاشراق تضئ ما حولها
وبالحرارة والحركة معا تحيل الاجسام الاخرى الى ذاتها ولذلك
كانت حقيقة النار انها ظاهرة تقوم بجرم آخر ويتخللها الهواء
ويحيط بها ولولا رطوبة الهواء الذى يحيط بالنار التى عندنا تمنعها
من ان تفرط فى اليبوسة لتماسكت اجزاؤها وجفت كما تجف نار
الصواعق ولو أصابها اليبس والجفاف لقل الانتفاع بها الذى هو
الغرض المقصود منها* فانظر رحمك الله الى هذه المنافع التى أودعها
الله لما فى النار اذ لولاها لكننا فى ظلمات دائمة لا نرى النور
ابدا فان الشمس من الاجرام النارية الملتهبة كما قال تعالى (سراجا
وهاجا) فهى جسم غازى ملتهب فلذلك كان نورها ذاتيا ولولا
ان الله خلقها كذلك فى السماء ما رأينا نورا قط وما وجدما نجده
الآن من منافعها المترتبة على صورها المتممة ولا اختل نظام العالم
وهذا الذى ذكرناه فى هذه الآيات القرآنية قليل من كثير وهى
ايضا بعض قليل من آيات القرآن المتعلقة بالعلوم بجميع انواعها
كونية وعمرانية وهناك آيات اخرى تتعلق بعلوم السموات
والارض وبالطبيعيات باكملها وبالجملة فالله سبحانه وتعالى أنزل
القرآن تبيانا لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء

والبدر مستصغر فى عين ناظره والذنب للعين لا للبدر فى الصغر

فهل يمكن لرينان أو غيره من الملحدين الذين يدعون الفلسفة والعلم وهم بعيدون عن ذلك كله ان يقول ماقاله وينسب للمسلمين التقهقر وأنه ناتج عن تمسكهم بدين الاسلام وان من زار الشرق أوافريقيا لاينجو من ضيق العقل الى آخر ماقاله فى أول محاضرته وانت ترى ان القرآن مملوء بالآيات الدالة على الفلسفة التى هى الحكمة والعلوم كلها كونية وعمرانية

وكيف يمكن لرينان أو غيره ان يقول ان المسلم لاقتناعه بأن الله يهب الرزق والسلطان الى آخر ماقاله فى هذه الفقرة والله يقول لعباده عموما وللمسلمين خصوصا فى كتابه المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ( هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ) وقال أيضا ( ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغماً كثيرا وسعة ) ويقول أيضا ( وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ) وقد جاء فى الاثر الصحيح اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا وقد جاء ايضا من عمل عملا فليتقنه

وهل يمكن ان يقال كما قال رينان ان المسلم يزدرى العلم والله يقول للناس عموماً والمسلمين خصوصاً فى كتابه المشار اليه (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الالباب ). وقال ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات )

وقال تعالى ( شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم ) وقال تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة والمراد كل العلوم فان أل للاستغراق لانه لا دليل على التخصيص ولان طلب كل العلوم فرض غاية الامر أن تعلم البعض منها فرض عين وتعلم البعض الآخر فرض كفاية على مافصله المحققون من العلماء خلافا لمن خص ذلك ببعض العلوم دون بعض

وكيف لهذا الذى يدعى انه فيلسوف أن يعيب الاسلام بكونه ماحياً لكل الفروق الجنسية والقومية طالباً من الناس أن يرتبطوا برابطة واحدة وان كل من يعتنق دين الاسلام من أى جنس كان أو من أى قوم كان أصبح أخاً لمن ارتبط معه بتلك الرابطة ومع تمسكه بجنسيته أو قوميته يرى تلك الرابطة الدينية أقوى من تلك فان الدين يوجب عليه أن يحب لأخيه المسلم مايحب لنفسه بدون التفات للفروق الجنسية أو القومية وهذه المزية التى اختص بها الاسلام من أفضل المزايا ومن اكبر علامات رقي هذا الدين فالدين الاسلامي يدعو الناس جميعاً لان يكونوا أمة واحدة يرتبطون برابطة واحدة فلا يرون الا رابطة الاسلام التى تجعلهم أخوة يتحابون

ويتوادون ويتناصرون ولا يتنازعون ولا يتنابذون كما قال تعالى ( انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون الآيات ) وقال صلى الله عليه وسلم — المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة

وكيف يسوغ لرينان أن يستثنى من عامة المسلمين الذين رماهم بكراهة العلم وبغضه أمة الفرس وحدهم ويصف هؤلاء بما لا يرضونه لانفسهم ويقول انهم شيعية وليسوا بمسلمين والله يعلم ويشهد انه لكاذب فيما يقول

أما الفرس فمنهم سنيون وشيعيون ولكنهم جميعاً مسلمون قبل كل شيء وها هم علماء الفرس وأئمتهم قديماً وحديثاً يعتنقون الاسلام ويحجون بيت الله الحرام كسائر المسلمين ويصلون صلاة المسلمين الى قبلة المسلمين ويصومون كما يصوم المسلمون وهذه كتبهم ومؤلفاتهم المخطوطة والمطبوعة تملأ البلاد وهي كتب اسلامية أصولا وفروعا * وكيف يمكن أن يقال في الفرس ما قاله رينان وقد جاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه

قال — لو كان العلم فى الثريا لتناوله رجال من فارس — ومنهم سلمان الفارسى من كبار اصحابه صلى الله عليه وسلم ومنهم كثير من أفاضل العلماء المجتهدين فى فقه الشريعة الاسلامية وفى فقه الحنفية خصوصاً

(رينان) بعد أن اعترف صريحاً بان المدنية الاسلامية كانت فيما مضى ظاهرة جداً وكان بها علماء وفلاسفة وظلت سيدة الغرب المسيحي قروناً طوالا قال انه لم يوجد فى الحقيقة علم اسلامي ولا علم أباحه الاسلام أو تلقاه بالتسامح بل الاسلام كفاح ديني دام عدة قرون الى آخر ما قال

هذا الذى قاله رينان انكار للشمس المشرقة الساطعة وسط النهار على كل مناطق الارض وتلك الشمس يكاد ضوؤها يخطف بصر هذا القائل وأشعة نورها تفقده بصره وبصيرته فان كتب الفلاسفة من المسلمين قديماً وحديثاً تملأ خزائن الشرق والغرب ولكن لا عجب ( فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وما قدمناه من الآيات التى تضمنت العلوم الكونية والعمرانية والفلسفة الدقيقة مما لا يدع مجالا للشك فى أن ما يقوله رينان طعناً على الاسلام والمسلمين فرية بلا مرية وان دين الاسلام هو دين العلم الصحيح والعمل الصالح والفلسفة الفكرية والعملية

يدعى رينان أن فرسان العرب الذين تعلقوا بالاسلام انما تمسكوا به ليكون حجة لهم فى الفتح والسلب والنهب وانهم فى

زمنهم كانوا خير مقاتلة العالم ولـكنهم كانوا أقل الناس حظا من الفلسفة .

هذه دعوة كاذبة أيضا فان فرسان العرب الذين هم خير مقاتلة انما كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا وليحق الله الحق ويزهق الباطل وما كانوا قط يقاتلون لمجرد الفتح والسلب والنهب وكيف ذلك ودينهم يحظر عليهم ويمنعهم أن يقاتلوا لهذه الاغراض وحقيقة الجهاد فى دين الاسلام هو قتال الـكفار المحاربين لاعلاء كلمة الله تعالى . وأما غير المحاربين فلا يجوز قتالهم قال الله تعالى فى كتابه ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ) وقال تعالى ( وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ) وقال تعالى ( وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ) وقال تعالى ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئـك هم الظالمون ) فكل منصف بعد هذا الذي تلوناه لا يسعه الا أن يكذب رينان ويسله من العلم واهله والفلسفة واهلها سلّ الشعرة من العجين

وأما ما نقله رينان عن أبى الفرج فى وصف طبائع العرب فنقول

له فضلا عن ان أبا الفرج ليس قوله حجة فى ذلك فرينان لم يفهم كلام أبى الفرج على وجهه الذى أراده منه فان أبا الفرج يريد أن يصف طبائع العرب قبل الاسلام ليبين أن العرب مع كون فخارهم علم اللغة الى آخر ما قاله رينان فى وصف طبائعهم عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن والتجأوا الى معارضة النبى صلى الله عليه وسلم بالرماح والسيوف وعدلوا عن المعارضة بالكلام والحروف فحاربوه بدل أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن لعجزهم عن ذلك قال تعالى ( وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ) وأما بعد أن اعتنق العرب الاسلام فقد تفتحت أعينهم العمى فأبصروا وآذانهم الصم فسمعوا وتفجرت من عيون قلوبهم وبصائرهم ينابيع الحكمة والفلسفة العالية الحقة الصادقة كما قال تعالى ( ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ) وقال تعالى ( هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين )

يقول رينان من أجل ذلك لم تبد فى حظيرة الاسلام حركة فكرية ذات طبيعة غير دينية فى عصر الخلفاء الاربعة الاولين وهذا

الذى قاله رينان ناشئ عن عدم معرفة حقيقة القرآن وانه يشتمل على كل العلوم التشريعية والكونية والعمرانية وان جميع العرب الذين نزل القرآن بلغتهم واقفون على معانيه فاهمون لها كما نفهم الآن لغتنا العادية فهم أخذوا القرآن عنه صلى الله عليه وسلم ووعوه فى صدورهم بألفاظه ومعانيه منطوقا ومفهوماً وهو الكتاب الذى لم يفرط فيه من شئ ونزل تبياناً لكل شيء وياليت رينان قبل أن يقول ما قال اطلع على ماهو منقول عن اصحاب رسول الله وتابعيه في القرن الاول كابن عباس وتلامذته فى تفسير آيات القرآن بما ينطبق على العلوم الفلسفية الكونية العمرانية فلو اطلع لاقتنع غاية الامر ان أولئك الاصحاب اكتفوا بآيات القرآن التى نزلت بلغتهم من طريق الوحى ولم يدونوا كتباً خاصة اكتفاء به واعتمادا على حفظهم له ألا ترى أن جميع العلوم المدونة الآن من نحو وعلوم بلاغة وكلام وفقه وأصول وحديث وتفسير لم تكن مدونة فى القرن الاول اكتفاء بالقرآن واعتماداً على الحفظ ومعرفة بلاغة القرآن وكل تلك العلوم منه فلما وجدت الحاجة بتغير الاحوال دونت تلك الفنون واتسع نطاق التدوين فيها كما ترى .

وأما ما قاله من أن مركز الاسلام انتقل الى اقليم دجلة والفرات الى أن قال ان ريح الاسلام العاتية أوقفت كل ذلك الرقى حوالي مائة عام الخ فهو كذب وافتراء على التاريخ فانه

عند انتقال مركز الخلافة الى بغداد الذى كان فى عهد الخلفاء العباسيين قد انتقل معه كثير من العرب وعلمائهم وبعد أن دخل اهل العراق ومن جاورهم من الفرس فى دين الاسلام قد وجد منهم مجموعة عظيمة كانوا علماء فى العلوم الفلسفية عقلية كانت أو شرعية كونية كانت أو عمرانية وكانوا جميعاً وعلى الاخص الفرس منهم أشد الناس تمسكا بدين الاسلام وكان منهم المجتهدون فى فقه الحنفية وفقه الشافعية والامامية وها هى مؤلفاتهم فى كل العلوم وهى متداولة قديماً وحديثاً تشهد بكذب «رينان» وأين هو من مؤلفات الفارابى وابن سينا وتلميذه مهمنيار وابن سبعين والصدر الشيرازى وغير هؤلاء ممن لايحصون كثرة مع أن مؤلفاتهم تملأ خزائن عواصم الشرق والغرب ولكن فلسفة رينان قضت عليه أن لا يكلف نفسه النظر فيما بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله من تلك المؤلفات وتعامى عنها حتى نسب الى الفرس ما نسب ومع ذلك قد نسى ما قدمت يداه من أن الاسلام يرفع الفوارق الجنسية والقومية فأهل فارس بعد أن اعتنقوا دين الاسلام أصبحوا هم والعرب أمة واحدة اسلامية لا تربطهم الا رابطة الدين الاسلامي التى هي العروة الوثقى لا انفصام لها فكيف بعد هذا يصف البرامكة بما وصفهم به من انهم على دين أسرتهم المجوسية وانهم اعتنقوا الاسلام من غير أن يدخل الايمان فى قلوبهم وهل رينان عاصر البرامكة الذين

كانوا فى زمن الخلفاء العباسيين وشق عن صدورهم وعلم ما فى قلوبهم حتى ساغ له أن يقول ذلك

وأما ما قاله بشأن النسطوريين واحتفائهم بالخلفاء الضعيفى الايمان فاختصوهم بالكرامة من بين الاطباء فهذا القول مما يدل على أن رينان يدعى الفلسفة وهو غير فيلسوف بل هو جاهل بما يقتضيه دين الاسلام أيضا من حسن المعاملة مع من يخالفنا فى الدين ومن أخص اخلاق الفلسفى الحقيقى أن يكون واسع الصدر كالبحر يحمل الرمم ولا يتأثر منها بل يعامل الناس بقدر مايليق بكل واحد منهم بدون التفات الى اختلاف فى مذهب أو مشرب أو دين بل يأخذ الحكمة أينما وجدها على أن ما قاله رينان من معاملة الخلفاء للنسطوريين فليس ذلك ناشئاً عن ضعف الايمان بل هو ناشئ عن قوة الايمان وشدة التمسك بدين الاسلام فان من يقوى إيمانه ويشتد تمسكه باسلامه لا يفرق فى المعاملة بين المسلم وبين غيره خصوصاً فى مايتعلق بالمهن والصناعات كالطب ونحوه

وأما ما قاله عن حوران وانها بقيت وثنية فلا يدل الا على انه كان منهم فلاسفة والفلسفة العقليـة لا تخص أهل دين دون أهل دين آخر

وأما قوله وخصوصاً مهرة المنجمين فان كان مراده بالمنجمين علماء علم أحكام النجوم وهو العلم الاستدلالى فهذا ينكره ويقول ببطلانه جميع علماء الإفرنج وكثير من علماء المسلمين وعلى الاخص

علماء الهيئة من الفريقين وان كان مراده علماء الفلك والهيئة وهو العلم الحسابي فهذا العلم كما اعتنى به العرب جاهلية واسلاما وكانوا فيه مهرة اعتنى به غيرهم فانه علم قديم اعتنى به من قديم الزمان الاشوريون والكلدانيون وأهل فينيقيا ومصر والهند والصين وغيرهم ومؤلفات المسلمين قديما وحديثاً في هذا العلم من العرب وغيرهم وزيوجهم تملا خزائن الشرق والغرب كيف وجميع منازل الشمس والقمر والبروج جاء بها القرآن صريحاً كما جاء بغيرها مما يتعلق بهذا العلم والقرآن نزل بلغة العرب بما يعرفه العرب واسماء المنازل والبروج عربية الى يومنا هذا

وأما قوله ان ماقامت به بغداد وماعرض من فترة السنين التي انتجت مهرة العلم والفلسفة فهذا حق ولا فرق بين العرب والفرس وغيرهم من المسلمين من جميع الاجناس في ذلك

وأما دعواه ان هذا المجموع الفلسفي هو عربي بالكتابة فقط وانه في الواقع يوناني ساساني الخ فصدورها من مثل هذا الذي يدعي الفلسفة غريب في بابه لان الفلسفة العقليـة هي علم قديم جداً مستمد من العقل لاينحصر في اليونانيين ولا في الساسانيين بل هو موجود من قبل اليونانيين والساسانيين ومن بعد هؤلاء وقد وصل الى المسلمين كتب اليونانيين ودخلت بلاد الاسلام وترجمت ومحصت تمحيصا دقيقا وقورن ما جاء بها على ما جاء في كتاب الله من قواعد الفلسفة وأحكام الشريعة الاسلامية فوجد

فى كتب اليونان ما يوافق قواعد الاسلام وما يخالفها ولكن
بعد مراجعة التراجم وتصحيحها تبين أن كل ما وجد من قواعد
الفلسفة يوافق قواعد الاسلام ولا يخالفها فى شيء كما حقق ذلك
فلاسفة المسلمين كالصدر الشيرازى وغـيره على أن العرب نقلوا
كتب اليونان الفلسفية وكتب غيرهم وترجموها ونقلوا مابها
من العلوم الفلسفية الى مؤلفاتهم العربية وزادوا فيها وجددوا
ما جددوا من المباحث المفيدة وبذلك كانت مؤلفاتهم كما يقول
رينان نفسه بواسطة ذلك لاهل أوربا خميرة التقاليد القديمة ولولا ما
صنعه العرب لبقيت كتب اليونان وغيرهم فى أماكنها ولضاعت
تلك العلوم وتلك الفلسفة فان أهل أوربا كانوا فى ذلك الحين
يهيمون فى كل واد من أودية الجهالة لايعرفون من المدنية شيئا
ويكفي المسلمين فخراً مايعترف به رينان من ذلك ومن أن شهرة
ابن رشد المسلم زاحمت شهرة أرسطو فى المدارس اللاتينية

وأما دعواه أن ابن رشد كان بين أهل دينه نسياً منسياً وانه
لم يوجد فلسفي عربي ذو شهرة بعد التاريخ الذى ذكره فلا
أدرى من أين جاءت له هذه الدعوى فان الفلاسفة من أهل الاسلام
كثيرون قبل ابن رشد وبعد ابن رشد ونفس ابن رشد لم يتعلم
الفلسفة الا من فلاسفة الاسلام الذين هم أعلى منه كعباً فيها
غاية الامر انه هو الذى وصلت شهرته وكتبه الى أوربا كما وصلت
[illegible] غاية الامر ان أوربا لما نهضت فى

أخريات الزمن بالعلوم الفلسفية ووجد فيها كثير من الفلاسفة اكتفت بما عندها فلم تعد ترحل لاخذ العلم من الشرق كما كانت أولا خصوصا من بعد أن ترك كثير من المسلمين في الشرق وغيره شعائر الدين والاعتناء بكتبه ولم يبق من الفلاسفة المسلمين الا عدد قليل . فعلة تقهقر المسلمين فى الشرق وفي أفريقيا وغيرها فى هذا الزمان انما هو عدم تمسكهم بالدين واقامة شعائره وعدم وقوفهم على علوم القرآن حتى كادوا يصيرون كأهل أوربا أجانب من الدين ولو اعتنوا بعلوم القرآن وفلسفة الاسـلام وتمسكوا بالدين لعادوا أسياد الغرب كما كانوا أولا على أن اهل أوربا لا يزالون الى الآن يرجعون الى كتب المسلمين التي نقلوها من بلاد الاسلام الى عواصم أوربا ويأخـذون منها المباحث الهامة والعلوم الكثيرة فلسفية وغيرها

فمتى يفيق الشرق من سكراته ونراه يحيي سنة الاسلاف ابن رشد لم يكن بين أهل دينه نسياً منسياً بل كل العلماء من أهل دينه يعرفونه ويعرفون منزلته فى العلم والفلسفة وانه من علماء المالكية

وأما دعواه انه لا يوجد بين الفلاسفة والعلماء الملقبين بالعرب الا الكندى والباقون منهم فرس فهذا جهل منه بفلاسفة العرب وان منهم كثيراً من هو أعلى كعباً فى العلم والفلسفة من الكندى ومن علماء الاندلس أبو بكر بن الصائغ الذى قيل فيه انه لم يكن

فى علماء الاندلس فى عصره من هو اثقب منـه ذهنا ولا أصح نظراً وقد تقدم عليه طبقات وتأخر عنه طبقات وكلهم فلاسفة فحول لا ينكر علمهم الا من لم يطلع على طبقاتهم . ولو رجع رينان الى تواريخ الاندلس علم ما كان فيهـا من العلماء والفلاسفة وما كانت عليه من الحضارة والمدنيـة من عهد أن فتحها موسى بن نصير وطارق بن زياد الذى لا يزال اسمه مذكورا فى جبل طارق الى أن اخـذها الاسبانيون فشوهوا مدنيتها وحضارتها وقتلوا وشتتوا من كان فيها من العلماء والفلاسـفة وحرقوا كثيرا من كتبهم ولم يبق منها الا قليل من كثير . كل هذا فعله الاسبانيون المسيحيون واكثر هؤلاء العلماء والفلاسفة من علماء العرب ولا يزال اهل الغرب المسيحيون يذيقون أهل الشرق وغيرهم كؤوس العذاب والذل والاستعباد بدون أن يوجد أدنى سبب سوى حب الفتح والاستعمار و بغض الغرب للشرق

وأما دعوى رينان أن اللغة العربية متعاصية على بحث ماوراء الطبيعة والفلسفة فهذه دعوى غريبة ممن يزعم انه فيلسوف فان اللغة العربية هى التى ترجمت اليها جميع العلوم والفلسفة اليونانية وغير اليونانية فكيف يمكن أن تكون هذه اللغة متعاصية على بحث ما وراء الطبيعة والفلسة ومن رجع الى كتاب الشفا لابن سينا والاشارات والنجاة وغيرها من كتبه خصوصاً قانونه فى الطب يرى مقدار ما اشتملت عليـه تلك الـكتب من العلوم

والفلسفة وكلها باللغة العربية ومن مسلم فلسفى وكتاب الشفا
وحده قد اشتمل على ثمانية عشر علماً منها الطبيعيات والفلسفة
وعلم ما وراء الطبيعة وقد تكفل الشيخ أبو على بن سينا
بالتبليغ عنها فى كتب ارسطاطاليس وجرى على مذهبه وسلك
طريق فلسفته فى كتاب الشفا وصرح في أول الكتاب بان الحق
عنده غير ذلك وانه انما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين
وان من أراد الحق الذى لاجمجمة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة
الشرقية ومن عنى بقراءة الشفا وبقراءة كتب ارسطاطاليس
ظهر له فى اكثر الامور انها تتفق وان كان فى كتاب الشفا اشياء
لم تصل الينا عن ارسطاطاليس وقد نبه الشيخ الرئيس فى كتاب
الشفاء على انه اذا أخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب
الشفا على ظاهره دون التفطن الى سره أو باطنه لم يوصل به الى
الكمال فتفطن لذلك تعرف حقيقة الحال كيف ونفس القرآن
الذى هو باللغة العربية الفصحي وهو عمدة المسلمين عموماً فى
دينهم وعلومهم مملوء بمباحث علم ما وراء الطبيعة والفلسفة غاية
الامر انها متلقاة من طريق الوحي وهذا مايزيدها قوة

ودعوى أن العلم والفلسفة مضطهدان دائما من الاسلام فما
قلناه سابقاً فى تفسير الآيات القرآنية ولا حقاً فى رد دعواه
كاف فى دحض هذه الدعوي أيضا

وأما ما ادعاه من أن للاسلام مدتين من تاريخه وان فى المدة

الاولى كان الاسلام بأيدى الفرق وان الذى كان يخفض من حدة طبعه نوع من البروتستانتية وهومذهب المعتزلة الى آخر ما قال وانه فى المدة الثانية وقع فى أيدى التتر والبربر وهى أجناس خشنة فظة عديمة الذكاء فنقول ان جميع الفرق كانت كلها فرقاً اسلامية ترجع فى اعتقادها الى أصل واحد وتدين بدين واحد هو الاسلام ولا يوجد بينهم أدنى خلاف فى جوهر هذا الدين وأصوله التى اتفقوا عليها جميعاً وانما اختلافهم فيما وراء ذلك من المباحث التى لا تدخل تحت العقيدة التى يجب اعتقادها فى دين الاسلام على أن دعوى رينان أن عقيدة المعتزلة عقيدة بروتستانتية فرية بلا مرية بل الواقع أن لا خلاف بين أهل السنة وبين المعتزلة فى العقائد الا خـلافا يرجع الى اللفظ والتعبير كما بينا ذلك بياناً شافياً فى حواشينا على شرح خريدة الدردير وكتابنا القول المفيد فى التوحيد وأما التتر والبربر الذين يزعم رينان أن الاسلام وقع فى أيديهم الى آخر ما قاله فيهم فنقول له

ان الاسلام قد انتشر بنفسه أخيرا بسرعة غريبة فى البلاد والاقطار فى اكثر المسكونة ولم يكن فى زمن من الازمان قاصرا على أيدى التتر والبربر على أن هؤلاء كانوا متدينين بدين الاسلام وما كانوا جميعاً اجناساً خشنة فظة عديمة الذكاء كما يزعم رينان بل هم كغيرهم من سائر الامم يوجد منهم الخشن والفظ وعديم الذكاء ويوجد غير هؤلاء ممن هو فى غاية الرقة واللين واللطف

والآداب العالية والذكاء المفرط قدهذبه الاسلام وادبه بآدابه الحسنة فجمله على احسن وصف من مكارم الاخلاق وحسن العشرة.

واما ما نسبه الى رفاعه بك من انه وضع كتابا فيه اغرب الملاحظات على الجماعة الفرنسية وأن محور تفكيره أن العلم الخ فليس هذا ذماً لجميع الفرنساويين من جهة العلم بالقوانين الطبيعية بل انما هوذم لفريق من الفرنسيين تركوا الاديان ظهرياً وتركوا من علوم ما وراء الطبيعة ما يتعلق بالالهيات وهذا بلا شك ممايذمه كل متدين ولايمدحه الا كل ملحد فان جميع مباحث الطبيعة ليس المطلوب منها الا الوصول الى العلم بماوراءها خصوصاً الالهيات

أما دعواه أن التجربة تزحزح ماعدا الطبيعة وان علم ما وراء الطبيعة أساس كل دين الى آخر ماذكره من ذم الاديان عموماً والاسلام خصوصاً فهى دعوى لايوافقه عليها عاقل فانه لولا شرائع الاديان ما تم نظام فى العالم بل كانت تسود الفوضى وما عرفت العلوم ولا نظرت العقول فيها

الشرائع وخصوصاً شريعة الاسلام بالنظر الى حقائق الموجودات والعلوم والفلسفة كالشمس بالنسبة الى الاعيان المبصرة فكما أن الشمس اذا أشرق نورها على الاعيان أدركتها الابصار كذلك اذا جاءت الشرائع مبينة حقائق الموجودات أدركتها البصائر بالبحث والنظر فيها وبهذا يعلم ما للشرائع من

المنفعة وأنها أساس العلوم والفكر ـ وأما ما قاله أخيراً من أنه ليس مرمى الانسانية أن تستريح للاستسلام للجهل ولكن الحرب الضروس الخ فان كان مراده بالحرب الضروس الحرب التى يعم افناؤها وحصدها للامم كما تحصد النار هشيم الزرع فقد حبذ شيئاً يذمه كل العقلاء وقد ذمه هو من قبل وان أراد من ذلك الحرب الفكرية فياليته قبل أن يلقى محاضرته ويقول فيها ما قال من الطعن على الدين الاسلام واهله اجتمع بواحد من فلاسفة الشرق المسلمين وناظره فيما يأخذ الاسلام به حتى يتحقق بعد البحث انه على جهل تام بحقيقة الاسلام وجوهره ولا يعرف منـه الا قشورا يتلقفها من العامـة الجهلة حتى لا يلقى محاضرته هذه التى دلت على انه ليس من الفلسفة فى شىء وانه بعيد عن الوقوف على حقيقة دين الاسلام وما اشتمل عليه من العلوم والفلسفة ومكارم الاخلاق.

## الخاتمة

قد جمع القرآن اجمالا مايتعلق بشريعة الاسلام علما واخلاقا فى آيتين احداهما تتعلق بأصل العلم والفلسفة والتشريع ومكارم الاخلاق وهى قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) والثانية تتعلق بمكارم الاخلاق وحسن المعاملة والمعاشرة وهى قوله تعالى (ولا تستوى الحسـنة ولا السيئة ادفع بالتى هى

أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم )

من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجدله وليآ مرشدآ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وفوق كل ذى علم عليم وفى هذا القدر كفاية لمن أنصف وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

﴿ فهرست كتاب تنبيه العقول الانسانية ﴾

١ خطبة الكتاب والباعث على التأليف
٦ مقدمة تضمن وصف القرآن بما اشتمل عليه والرد على رينان اجمالا
٨ ما يتعلق بتكوين الانسان ومبدأ وجوده وتفسير قوله تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم الآية
١٠ مبحث تفاوت مرتبة النبوة والرسالة وتفاوت الأشياء فى القوتين النظرية والعملية
١٢ مبحث بيان أن الانسان مفطور على أن يكون وسط بنى نوعه
١٣ مبحث أن القوة الالهامية وان كانت غير أجنبية من الانسان الا أن عقله يضعف ارشاداتها
١٤ مبحث أن الماهيات التى ترسم فى الخيال عند ابصار المبصر الحادث
٢٦ مبحث الافئدة التى جعلها الله مراكز للحياة
١٨ مبحث الظواهر المختصة بالقوى التى للانسان وقابلية الفؤاد للادراك
١٩ مبحث القوة الحافظة التى خلقها الله فى الانسان
٢٠ مبحث القوة الحاكمة التى جعلها الله للانسان وبيان الحكم المستقيم
٢١ مبحث قد يمنح الله أشخاصا نعمة عقلية جزيلة
٢١ مبحث أن الله جعل فى الانسان حسا جبليا خرج عند حده

٢٣ مبحث العضو المسمى بالمخ الشوكي
٢٤ الفذلكة المترتبة على بيان قوله تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم الآية
٢٥ كيفية بدء تكوين الانسان
٢٦ المرتبة الاولى والثانيةوالثالثة
٢٧ المرتبة الرابعة ٢٨ المرتبة الخامسة والسادسة
٢٩ مبحث ان خلق الانسان على هذهالاطوار لا بد أن يكون بطريق التوالد بين ذكر وأنثى وما يتعلق بذلك
٣٣ مبحث بيان أن مني الرجل هو المعين على العلوق
٣٥ بيان تأثير المنى فى وظيفة التوالد
٣٥ القول الاول قالوا ان الجنين الى آخره
٣٦ القول الثانى الطريقة القديمة التى قالوها فى اختلاط المنيين
٣٧ القول الثالث طريقة البذرتين وهي أحسن الطرق وفيها أقوال
٤٠ مبحث ما قالوه فى وقت ظهور البذرة فى الرحم
٤١ مبحث شكل العلقة وما يظهر فيها من شكل الاعضاء
٤٧ مبحث الدور الثانى للجنين
٤٩ مبحث المرتبة السابعة
٥٠ مبحث ان الاطوار على الكائن الانسانى فى الحياة الرحمية مطابقة للاحوال الدائمة فى الحيوانات الاخرى
٥٤ بيان بعض مايتعلق بقوله تعالى فلينظر الانسان مم خلق الآية

٥٧ الفذلكة المرتبة على هذه الآية

٥٧ ما يتعلق بتكوين العالم كله والكلام على بعض ما قيل في قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى الآية

٥٩ الكلام على خلق جميع الدواب على وجه الارض وعلى قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء الآية

٦١ مبحث التناسل في الموجودات الآلية

٦٢ مبحث فعل الدم في المجموع العصبي

٦٣ مبحث اختلاف وظائف أعضاء الموجودات واختلاف أشكالها الظاهرة

٦٦ مبحث اختلاف الحيوانات في التغذية

٦٨ مبحث وظيفة التناسل وأنها وظيفة عامة في جميع الاجسام الالية

٧٠ مبحث السموات والارض وذكر بعض ما قيل في قوله تعالى ( قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين الآية

٧٢ في بعض ما قيل في قوله تعالى ( والارض بعد ذلك دحاها) وذكر بعض فوائد خلق الجبال

٧٤ ذكر بعض ما قيل في قوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه الآية

٧٥ ذكر بعض ما قيل في قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع

٧٥ بيان حالة الارض قبل خلق الجبال

٧٧ دوران الارض وأخذه من القرآن

٨٠ بيان دلالة القرآن على أن فى السموات دواب كما في ان الارض دواب

٨٢ دلالة القرآن على تعدد الشموس والاقمار

٩٤ علوم الفلسفة أربعة أقسام رياضية ومنطقية وطبيعية والهية والكلام على ما يتعلق بكل منها

٩٨ مبحث دلالة القرآن على مادة الفحم الحجرى وسائر ما يتبعه من المواد الملتهبة

١٠٦ تفنيد ما قاله رينان من نسبة التقهقر للمسلمين وانه ناتج عن تمسكهم بدين الاسلام

١٢٠ الكلام على ان الاسلام قد انتشر بنفسه اخيرا بسرعة غريبة فى البلاد والاقطار

١٢٢ خاتمة فى ان القرآن قد جمع اجمالا ما يتعلق بشريعة الاسلام علما واخلاقا

## ( بيان الخطأ والصواب الواقع فى هذا الكتاب )

| صحيفة | سطر | صواب | خطأ |
|---|---|---|---|
| ٢٣ | ٣ | العضو | العقل |
| ٢٣ | ٧ | من معقول الى معقول | من معقود الى معقود |
| ٢٣ | ١٤ | ضمر فص المخيخ | ضمر المخيخ |
| ٢٤ | ١٥ | ويقيموا | ويقيمه |
| ٣٢ | ١٥ | بمنزلة | بمنزلى |
| ٣٨ | ١٣ | على ذلك ان | على أن |
| ٤٠ | ٨ | وهذا هو الذى | وهذا الذى |
| ٤٤ | ٤ | أحدها | أحدهما |
| ٤٥ | ١٢ | تتصل بالجلد | تتصل به الجلد |
| ٥٢ | ٢٠ | القلائد | القلائل |
| ٥٤ | ١٠ | فتى | حتى |
| ٦٠ | ٦ | فى تلك الاية الاشارة | الاية الى الاشارة |
| ٥٢ | ١٧ | وعلة | وعلى |
| ٦٣ | ٤ | انه يشاهد | ان يشاهد |
| ٧٦ | ٤ | منه | فيه |
| ٧٦ | | تختلف شدته | تختلف الى شدته |
| ٧٨ | ١٦ | والتثنية أو الجمع ان | والتثنية إن |
| ٧٨ | ١٧ | مثنى أو جمعا فالتثنية | مثنى فالتثنية |
| ٧٨ | ١٧ | فالتثنية أو الجمع لمراعاة | فالتثنية لمراعاة |
| ١٠٣ | ١٩ | الرسوبات | الرسومات |
| ١٠٨ | ٥ | ولا تنابزوا | ولا تنابذوا |


Bibliotheca Alexandrina
05299961